WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

التأريخ لتفسير نِظَام القُرآن

أبو بِشْر

محمد بن خليل الزَّرُّوق

الإبراز الأول

محرم ١٤٤٤هـ = آب ٢٠٢٢م

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

فهرس

ترتيب السور وحي ٣
دلالة القرآن على ترتيب سوره ٣
الحكمة في تسوير كل سورة ٥
النظام بعد النظم ٦
إشارة نبوية ٧
تأويل ابن عباس ٧
تأليف ابن عربي وإخفاؤه ٩
عناية الرازي بتناسب الآي ١٠
عجائب تفسير الحَرَالّي ١٣
إنكار العز بن عبد السلام ١٧
إظهر علم الناسبة في بغداد ١٩
ابن زبير الغرناطي وتناسب السور ٢١
الفقه والنظم عند الشاطبي ٢٣
بصائر الفيروزآباذي ٢٥
الزركشي في علوم القرآن ٢٦
تفسير البقاعي ٢٦
تصانيف السيوطي ٣٠
عودة الشبهة مع الشوكاني ٣١
تفسير المنار والمناسبات ٣٣
الفراهي ونظام القرآن ٣٩
طريقة ابن عاشور ٤٤
شلتوت والتفسير ٤٥
كتّاب للصعيدي ....,....... ٤٩
النبأ الدِّرَازي ٥١
تصوير سيد قطب ٥٥
الغزالي والتفسير الموضوعي ٦٢
عودة الشبه مع البيومي ٦٣
استمرار البحث في النظام ٦٥
سبحاني وتأصيل نظرية الفراهي ٦٧

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

• ترتيب السُّوَر وحي:

ترتيب القرآن الكريم آيِهِ في سُوَره، وسُوَره في مصحفه، بلغَنا متواترًا مجمَعًا عليه، لا يجيز أحد تبديله، ولا يُتصور أن يكون شيء منه اجتهادًا، وبلوغه إلينا على هذه الدرجة من التواتر أعلى من أحاديث الآحاد، وأعلى من مصاحف الآحاد، وكل ما يمكن الاستدلال به على غير ذلك محمول على أنه كان قبل استقرار الترتيب، إذ كان ينزل منجَّمًا، فلما تتامَّ نزوله في أواخر حياة النبي ﷺ، وعارضه جبريل –عليه السلام– العرضة الأخيرة مرتين، عُلم ترتيبه على ما هو عليه بين أيدينا اليوم، وهو الترتيب الذي جُمع عليه المصحف في عهد أبي بكر ثم في عهد عثمان، وأجمع عليه الصحابة، رضي الله عنهم. وظاهرٌ أن الخلاف المحكي إنما كان للاختلاف في تصور ما جرى بعد وقوعه، فهو خلاف نظري لا يترتب عليه عمل، لأنه لا بديل لهذا الترتيب المجمع عليه، ولا إمكان للتبديل لا وقوعًا ولا تشريعًا. وكثيرًا ما يكون في مصنفات العلم المشتهرة المتداولة حكاية مسألة أو خلاف فيتتابع المصنفون من بعد على حكاية ذلك بغير توقف في حقيقته وجدواه.

• دلالة القرآن على ترتيب سُوَره:

وما كان الله ليدع كتابه الذي جعله حجة على الناس أجمعين لاجتهاد البشر في تأليفه كتابًا مرتب السور، وقد قال: (**إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه**)، فردَّ الأمر كله إليه في الجمع والقرآن والبيان، وما أرى هذه الآيات من سورة القيامة إلا تفصيلًا لقوله في سورة الحجر: (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**)، فقد حفظه بكل ذلك، فجمْعُه تأليفُ آيِهِ في سُوَره، وتأليفُ سُوَره في صحفه، على ما أراد الله، وقرآنُه قراءة جبريل له تعليمًا للنبي ﷺ، ولذلك أُمر باتباع قرآنه، وبيانُه إبلاغُ الناس به على هذا النظام المراد، وقد فعل.

وجاء في السورة التالية لسورة الحجر سورة النحل: (**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**)، وذلك بعد ذكر إرسال الرسل السابقين بالبينات والزُّبُر، والزُّبُر

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

الكتب، وأمَرَه في السورة نفسها أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم إذا قرأ، لأنه شرٌّ صادٍّ عنه وعن حفظه وعن تدبره، ثم قال: (**وإذا بدَّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون**)، فأشار بهذا إلى النسخ في المنزَل قبل إكماله وقضاء وحيه على ما أراد الله، ثم ذكر معلمه إياه، وهو جبريل، ومنزله عليه، وهو الله، سبحانه، فقال: (**قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين**)، وذَكَر الغَرَض من تنزيله، وهو تثبيت الذين آمنوا بنجومه، والهداية والتبشير للمسلمين بما يستقر عليه بعد ذلك من رسومه.

وذِكْر التثبيت مقرونًا بالتنجيم جاء في سورة الفرقان في جواب ما شَغَب به الذين كفروا من طلب أن يُنزل جملة واحدة لا منجَّمًا، فقال: (**كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلًا**)، وما أرى الترتيل إلا ترتيبه على ما استقر عليه أخيرًا، أي نزل كذلك مسايرًا للأحداث والمسائل، ثم رتلناه بعد تمامه، على ما يُحفظ عليه كتابًا مؤلَّفًا على نظامه. وذَكَر علةً أخرى لتنجيمه في سورة الإسراء، فقال: (**وقرآنا فَرَقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزَّلناه تنزيلًا**)، فجعل علة ذلك أن يعلِّمه الناسَ زمنًا مكيثًا، فيكون مكينًا فيهم، يتشربونه شيئًا فشيئًا، وقوله هنا: (**ونزلناه تنزيلًا**) في معنى الفَرْق على الأيام، كقوله في سورة الفرقان: (**ورتلناه ترتيلًا**) في معنى الجَمْع على نظام. وعلى هذا يُحمل ما في سورة المزمل، لأن القائم به يتلو ما تيسر منه في كل ليلة، فيكون له تحزيب لا يفوته به مما عنده منه شيء، فهذا ترتيله، لأن الترتيل حُسن النَّسَق والترتيب. وترتيله بمعنى حسن اللفظ به ليس ببعيد، وهو مراد أيضًا، فله ترتيل في حروفه وجمله، وله ترتيل في أحزابه وأجزائه.

وفي القرآن أيضًا إشارتان إلى ترتيب سوره، وإلى أن السورة منه يجمعها معنى جامع، وذلك قوله في سورة هود: (**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات**)، وسورة هود السورة الحادية عشرة في ترتيب المصحف باحتساب الفاتحة، والعاشرة بغير احتسابها، والعاشرة باحتساب الأنفال وبراءة سورة واحدة، وعلى كل حال هي العاشرة، أو ما قبلها عشر سور.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

وقال في مفتتح سورة النور: **(سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون)**، فأشار بذلك إلى أنها في معنى واحد، وهو الأحكام المفروضة فيها في العلاقة بين الرجال والنساء، والمعاني والمواعظ التي تتصل بها وتكملها. وقد جاء لفظ سورة في القرآن تسع مرات، والمرة العاشرة بصيغة الجمع في سورة هود، والعجيب أن أربعًا من التسع في سورة التوبة المظنون بها أنها ليست سورة مستقلة[١].

- **الحكمة في تسوير كل سورة:**

ولا يكون ترتيب السور وترتيب الآي في كل سورة على ما هو عليه إلا لغرض، عِلمَه من علِمَه وجهله من جهله، وهذا وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ذلك أن كل ما فيه من لفظ ومعنى ونظم، وتقديم وتأخير، وتشابه بنقص في موضع، وزيادة في موضع، ومن إطناب وإيجاز، وحذف وإثبات، ونحو ذلك من وجوه تصريف الآي والجمل والألفاظ والمعاني، لا يكون جاء بغير قصد أو غرض أو أغراض، وهذا ما حمل الناظرين والمتدبرين على البحث في العلل، والسؤال عن الحكمة في كل ذلك وغير ذلك، لأنه كلام الله العليم الحكيم.

فإذا بحث الباحث عن الغرض من تسوير السورة، وقَصْرها على ما فيها من ألفاظ ومعانٍ، فحُق له ذلك، وإذا تفكر في خصوصيتها بين السور، وما افترقت به عن غيرها، وما جعلها في هذا الموضع من السور، وفي علاقتها بما قبلها وما بعدها، وكيف انتظمت آيُها فيها؟ وكيف انتظمت بموقعها بين جاراتها القريبات والبعيدات؟ وما الذي جعلها خُصَّت ببعض الألفاظ والأساليب والفواصل؟ فهي قمينة بذلك، وإغفال ذلك من النقص في العلم الذي يجب أن يُكمَّل، والاختلافُ في هذا الباب والخطأ فيه محتمَل، كما يجري الخطأ والخلاف في سائر

---

[١] كما في حديث ابن عباس يقوله لعثمان -رضي الله عنهما-: «ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة، وهي من المئين، فقرنتم بينهما...»، وفيه قول عثمان: «فقُبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، وظننت أنها منها»، وانظر الكلام عليه في مسند أحمد ٤٦٠/١ حديث ٣٩٩، وضعَّفه المعلقون عليه، والشيخ شاكر قبلهم أيضًا في نسخته من المسند ٤٦٠/١. وانظر مزيد تخريج له في حواشي الإتقان للسيوطي (المدينة) ٣٩٤/٢-٣٩٥.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

ضروب العلم، ولا يلغي ذلك أصل الباب، وأنه مما يحتمل المزيد من الأنظار، وأنه وجه من التفسير لجملة السورة، ولجملة مساق السور منتظمة مرتلة بعضها في إثر بعض.

• **النظام بعد النظم:**

بل أقول: إن هذا درجة أخرى فوق نظم النحو الذي شرحه عبد القاهر الجرجاني، وذكر أنه تعليق الكلم بعضها ببعض على وجه من الخصوصية والنسَق، يجعل لها تلك المزية من البلاغة[١]، فإنما يجري ذلك في الجملة الواحدة، أو في الجمل المتقاربة المتعانقة، فأما في الانتقال من كلام إلى كلام، ومن معنى إلى معنى، فهذه مَرْتَبَة أخرى من النظام، فيها وجوه من البلاغة ومن الإعجاز لا تقل عن تلك في المرتبة الأولى من نظم النحو، فكما تُنظم الجملة على سَنَن العرب بمزايا من البلاغة، تُنظم السورة على سَنَن معاني الوحي في سائر القرآن وفي السُّنَّة بمزايا من البلاغة في النظام والنسَق وترتيب المعاني بعضها على بعض، وتُنظم السُّوَر أيضًا في الكتاب كله على وجوه من التكامل والاعتلاق، ويؤلف ذلك كلُّه شبكة من المعاني القرآنية المنظومة، من الجملة إلى القطعة إلى السورة إلى الطائفة من السور إلى جملة الكتاب الكريم.

ولماذا يكون حتمًا أن يبقى التفسير في حدود الجملة المفردة أو الآية الواحدة، ولا يتخطاه إلى استيضاح المعاني مؤتلفة، وما يدل عليه ائتلافها من معنى جُمْلِيٍّ يطبع السورة بطابع من الخصوصية، ويجعلها في موقعها من السور بهذا الطابع على صلات مخصوصة من العلائق؟ كيف وقد نزل كثير من السور منجَّمًا بحسب الوقائع، ثم جُمع هذا الجمع، وأُلِّف هذا التأليف، فلم يوجد فيه تفاوت ولا اختلاف، ولا اضطراب ولا نُبُوٌّ؟ وهذا وحده إعجاز، بل إنما وقع التحدي بسورة واحدة من السور، أن يأتوا بسورة مثله أو من مثله، وهذا أقل ما تحداهم به، فلا جرم أن كانت السورة الواحدة في نظامها ومعناها وأسلوبها معجزة، ولم يتحدهم باللفظة أو الآية، وفي الآي ما هو كلمة واحدة، فالتحدي بالسورة يجعل الإعجاز للسورة طالت أو قصرت، ويجعل لبنائها ونظامها شأنًا مخصوصًا حريًّا بالدرس والتدبر.

---

[١] دلائل الإعجاز (شاكر) ٤ من المدخل، و٣٦ من الكتاب، والكتاب كله في هذا المعنى.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

• إشارة نبوية:

وفي حديث صحيح مسلم في شأن سورة الفاتحة إشارة إلى معنى السورة، وإلى أقسامها، وإلى تناسب آيها، ذلك أنه قال ﷺ:

«قال الله تعالى: قسَمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: (**الحمد لله رب العالمين**)، قال الله تعالى: حمِدني عبدي، وإذا قال: (**الرحمن الرحيم**)، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: (**مالك يوم الدين**)، قال: مجَّدني عبدي –وقال مرة فوَّض إلي عبدي– فإذا قال: (**إياك نعبد وإياك نستعين**) قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: (**اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**)، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[١].

فجعل السورة أقسامًا: الحمد والثناء والتمجيد والدعاء، ثم هذه الأقسام نصفان، فالحمد والثناء والتمجيد لله، والدعاء وإجابته للعبد، وهذه قسمة أخرى، وجعل ما هو لله ثلاثة أقسام، فالحمد على الآلاء، والثناء على الأوصاف التي تضمنتها الأسماء، والتمجيد بعض من ذلك، ولكنه على معنى القدرة والقهر، فهو يميت الناس ويحييهم، ثم يحاسبهم ويجازيهم، فإذا زيد على القسمة الثنائية ما بين العبد والله وهو العبادة والاستعانة كانت قسمة ثلاثية، فإذا قسمت السورة على الحمد والثناء والتمجيد والدعاء كانت قسمة رباعية، فإذا أضيف إليه العبادة والاستعانة كانت قسمة خماسية، ففي السورة قسمة ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، وقسمة سداسية بحسب الآي بغير البسملة، وسباعية بحسب الآي بالبسملة، بحسب هذا الحديث.

---

[١] صحيح مسلم (عبد الباقي) ٢٩٦، حديث ٣٩٥.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

• **تأويل عبد الله بن عباس:**

وكان أقدم من نبَّه على أن السورة ترجع إلى معنى هو عمودها الذي تقوم عليه بعد هذه الإشارة النبوية – عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– (٣ق-٦٨هـ) تَرْجُمان القرآن، ومن دعا له النبي ﷺ بقوله: «اللهم فَقِّهْهُ في الدين، وعلِّمْهُ التأويل»[١]، ففي الصحيحين، وهذا اللفظ لمسلم، عن سعيد بن جبير، قال:

«قلت لابن عباس: سورة التوبة، قال: آلتوبة؟ قال: بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يَبقى منا أحدٌ إلا ذُكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال، قال: تلك سورة بدر، قال: قلت: فالحشر، قال: نزلت في بني النضير»[٢]، وفي رواية للبخاري: «قال: قل: سورة النضير»[٣].

ليس يعني بذلك تبديل أسمائها، بل يعني الدلالة على معانيها التي تقوم عليها، فجعل سورة التوبة في فضح المنافقين، وسورة الأنفال في شأن غزوة بدر، وسورة الحشر في شأن غزوة بني النضير، ولا شك أن هذه السور فيها معان أخر غير هذا، ولكنه كأنه يقول في كل سورة: هذا عمودها، أو ما تدور عليه معانيها، وما ترجع إليه أجزاؤها.

وهذا من ابن عباس نحو ما جاء عنه في سورة النصر، من أنها في معنى الإيذان بأجل رسول الله ﷺ، ووافقه عليه عمر بن الخطاب، ولم يعرفه سائر الصحابة في مجلس عمر، وهم الأشياخ من السابقين ومن أهل بدر، رضي الله عنهم جميعًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ففي صحيح البخاري:

---

[١] مسند أحمد (الرسالة) ٢٥٥/٤، حديث ٢٣٩٧ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وجاء في معناه ألفاظ أخر، كما في صحيح البخاري (التأصيل) ٣٠٢/١، حديث ١٤٧: «اللهم فقهه في الدين»، وفيه أيضًا ٢٥٠/١، حديث ٧٦: «اللهم علمه الكتاب»، وفي صحيح مسلم (عبد الباقي) ١٩٢٧، حديث ٢٤٧٧: «اللهم فقهه».

[٢] صحيح البخاري (التأصيل) ٤٢٠/٦، حديث ٤٨٦٦، وصحيح مسلم (عبد الباقي) ٢٣٢٢، حديث ٣٠٣١.

[٣] صحيح البخاري (التأصيل) ٢٢٩/٥، حديث ٤٠١٩.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

«عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تُدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما رُئيتُه دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا**﴾ حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أُمِرْنا أن نحمَد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يَقُل بعضهم شيئًا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أَعْلَمَه الله له: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ فتح مكة، فذاك علامة أجلك، ﴿**فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**﴾، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم»[١].

وانظر إلى حفاوة عمر بن الخطاب بهذا الفهم، وجعله دليلًا على منزلة ابن عباس في العلم، وحسن استنباطه.

• تأليف ابن العربي وإخفاؤه:

ومن أجل ذلك وغيره كانت التفاسير المصنفة لا تخلو من الإشارت إلى هذه المعاني من التناسب بين الآي، والتناسب بين السور، وإلى الجوامع التي تجمع السورة في معنى أو معانٍ، ولكنها كانت إشارات قليلة منثورة، فالذي قلَّ وتأخر في الزمن هو العناية بهذا المطلب في كل القرآن الكريم، وجَعْلُه منهجًا في التفسير، فسأذكر فيما يأتي من نبَّه على شأن هذا المنحى نظريًّا، أو أخذ به في التفسير معتنيًا به.

ومن أقدم من ذكر ذلك، وذكر أن له تأليفًا فيه القاضي أبو بكر بن العربي (٤٦٨-٥٤٣هـ)، ولكنه أخفى تأليفه ذلك ولم يظهره، وعلة ذلك عنده أن أهل عصره لا يبلغون أن يفقهوه أو

---

[١] صحيح البخاري (التأصيل) ٥/٣٨١، حديث ٤٢٧٦.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

يقدُروه قَدْرَه، قال:

«إن ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل منه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلمَّا لم نجد له حَمَلَة، ورأينا الخلق بأوصاف البَطَلَة، ختمْنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه»[١].

وقال في موضع آخر من كتبه في الكلام على سورة الأنعام:

«والأحكام فيها قليل، لعارض بينا وجهه في: ترتيب آي القرآن، وهو كتاب أخفيناه بعد أن جمعناه، لما رأينا من علوه على أقدار أهل الزمان، وأنه ليس له في هذه الأقطار حَفِيّ، فوضعناه في سَرَب خَفِيّ»[٢].

والظن أنه لم يُخْفِ تأليفه هذا من أجل أنه يعلو على فهم أهل زمانه فحسب، كما قال، ولكن لا بد أنه وجد إنكارًا ومعارضة لما جاء به، إذ رأوه مسلكًا غير مألوف في تفسير القرآن، وخروجًا عن المعهود من طرائق المفسرين، بكلامهم على الآية المفردة في الغالب، وما فيها من آثار وأسباب للنزول وغريب وإعراب وأحكام، ومبادئ السورة وما فيها من مكي ومدني واسم وفضل، وقد استمر هذا الإنكار إلى العصر الحديث، كما سنرى، إن شاء الله. وكأن مَرَدَّ ذلك الإنكار ليس إلى جدة هذه الفن فحسب، ولكن لأن أغلبه ظني، ويكون على سبيل ما يسمى النُّكْتة والمُلْحة واللطيفة، راجعًا إلى ذوق مستخرجه وكاشفه، مردودًا إلى تأمله وتدبره، وليس ذلك في رأيي بمخرجه من العلم كما قد يبدو، لأنه في الأصل مستور متروك لتوالي الأزمان، وكرور الأيام، وإمعان الأنظار، وتعاقب العلماء، فالقرآن نزل للزمن كله، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء والقراء والمفسرون والمتدبرون، بشرط أن تساعد على ذلك العربية، وسائر

---

(١) سراج المريدين ٤/١٤٤-١٤٥. والبَطَلَة: يريد أهل التبطل والكسل.

(٢) الناسخ والمنسوخ لابن العربي ٢/٢١٠. وسَرَب: يريد في مكان أخفيناه فيه، كالحفير في الأرض.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

أدوات المفسر، ويكون الوجه المكشوف موافقًا لمحكم القرآن، وأحكام الشريعة، وصحيح السنة، فيجيء في موضعه حسنًا لائقًا يتلقاه الفهم البصير بالعلم بالقبول والرضى من أجل كل ذلك.

• عناية الرازي بتناسب الآي:

وأقدم من بلغنا تصنيفه وكلامه تفصيلًا على التناسب بين الآي فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٦هـ) في تفسيره الكبير: «مفاتيح الغيب»، وكان كثيرًا ما يسمِّي ذلك «كيفية النظم»، في صدر الكلام على الآية[١]، أو في ختامه[٢]، وكان قد نبه على عنايته بذلك الزركشي (٧٤٥-٧٩٤هـ) في البرهان، في النوع الثاني: معرفة المناسبات بين الآيات، وقال: «وتفسير الإمام فخر الدين فيه شيء كثير من ذلك»، وقال: «وقد قلَّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي»[٣]، ونقل قول الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[٤]، وذلك في سورة النساء عند قوله تعالي: **(وإذاحكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)** ومجيئه بعد قوله: **(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)**، ونقل السيوطي قوله في الكلام على خواتيم سورة البقرة، عند قوله: **(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون)**:

> «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسَب أسلوبه، أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين مُعرضين عن هذه اللطائف، غير متنبهين لهذه الأمور، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

---

[١] مفاتيح الغيب (الخيرية) ٢/ ٣٣٤.

[٢] مفاتيح الغيب (الخيرية) ٨/ ٣٧٠.

[٣] البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٦ و٣٧.

[٤] مفاتيح الغيب (الخيرية) ٣/ ٢٤٠، والبرهان في علوم القرآن ١/ ٣٦.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

والنجمُ تَستصغر الأبصارُ رؤيتَه والذنبُ للطَّرف لا للنجم في الصِّغَرِ»[١]

وهنا يشير الرازي إلى صلة ذلك بالإعجاز، وذلك أن نظامه في الترتيب والعلائق بين الآي والسور يحير الألباب، ولا يزال النظر يكشف منه وجوهًا لا تكاد تنفد، ولم يُرِد الرازي ذلك، ولكن أراد وجود هذه الوجوه من المناسبات، وأقول: إن الإعجاز ليس في وجودها فحسب، بل في تكاثرها، وفي تعددها بلا تعارض، وذلك يجري في عمود السورة ومعناها، فليس حتمًا أن يكون المقصد واحدًا، بل إنه يصح العدد من الوجوه في ذلك، ويكون كلها صحيحًا ومرادًا وتكون قابلة للمزيد من الكشف.

وانظر إلى إشارة الزركشي والرازي كليهما –وأحدهما من المائة السابعة والآخر من الثامنة– إلى قلة عناية المفسرين بهذا الباب في تفسير القرآن، ولكن قلة العناية نُقْلَة لا بأس بها من الإعراض والإنكار اللذين ألمح إليهما ابن العربي في أوائل المائة السادسة.

واقترب الرازي شيئًا من أن تكون السورة راجعة إلى معنى واحد تدور عليه معانيها، ولكنه لم يمعن في هذا الفن، ولم يلجه كما ولج في فن ارتباط الآي بعضها ببعض، وإشارته إلى هذا المعنى في سورة فصلت تفيد أنه قاربه بغير أن يتبين أنه يمكن أن يجري في كل السور، ذلك أنه قال عند قوله تعالى: **(قل هو للذين آمنوا هدًى وشفاء)**: «وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسَّرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلامًا واحدًا منتظما مَسُوقًا نحو غرض واحد»[٢]، وهذا يفيد أن ذلك عنده لا يجري في كل السور. وكان قال قبل ذلك: «وقد ظهر من كلامنا في تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة هو ذكر الأجوبة عن قولهم: **(قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه...)**»[٣] الآية.

---

[١] مفاتيح الغيب (الخيرية) ٢/٣٨٠، والإتقان (المدينة) ١٨٣٩، والبيت للمعري في شروح سَقْط الزَّنْد ١٦٢، وفيه: صورته.

[٢] مفاتيح الغيب (الخيرية) ٧/٢٥٥.

[٣] مفاتيح الغيب (الخيرية) ٧/٢٥٤.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

وأما اتصال السورة بالسورة فلم يعتن به تفسير الرازي إلا في الثلث الأخير من القرآن، من سورة العنكبوت(١)، وذلك يصلح شاهدًا في الخلاف في أنه أتم تفسيره أو لم يتمه(٢)، وعلى كل حال فلو ثبت أنه أتمه غيرُه فيكون المتم له من تلاميذه أو ممن جاء بعده في العصر.

• عجائب تفسير الحرالِّي:

ثم كان أبو الحسن الحَرَالِّي (-٦٣٨هـ) الأندلسي الأصل، المراكشي المولد، الحموي الوفاة، فاعتنى بهذا الفن، وله تفسير، كأنه لم يتمه، ولا يُعلم له وجود إلا ما نقله عنه البقاعي (٨٠٩-٨٨٥هـ)، وقد اطلع على جزء فيه إلى قوله تعالى في سورة آل عمران: **﴿إن الله اصطفى آدم ونوحًا﴾**(٣)، وستأتي مقالته، وقال الغِبْريني (٦٤٤-٧٠٤هـ):

«وأما علم التفسير فكان يورد الآي ويناسقها نَسَقًا بديعًا، ويتكلم فيها بما لم يُسبق إليه، وله تفسير على كتاب الله تعالى، سلك فيه سبيل التحرير، وتكلم عليه لفظة لفظة، وحرفًا حرفًا. وكان وقوع الكلام بينه وبين الشيخ عز الدين ابن عبد السلام (٥٧٧-٦٦٠هـ)، إمام الديار المصرية في زمانه، على التفسير، وطلب أن يقف على شيء منه، ولما وقف عليه قال: أين قول مجاهد؟ أين قول قتادة؟ أين قول ابن عباس؟ وأكثر القول في هذا المعنى، ثم قال: يخرج من

---

(١) مفاتيح الغيب (الخيرية) ٦/٤٢٨.

(٢) انظر مجموع رسائل التفسير لعبد الرحمن المعلمي، الرسالة السادسة عشرة حول تفسير الرازي وتكملته ٣٠٣-٣٣٢، ورأيه أن ما لم يفسره: من العنكبوت إلى يس، ومن القتال إلى الواقعة، ومن الممتحنة إلى التحريم، والباقي له، وإلى هذا الرأي ذهب صاحب التهذيب الجازي لتفسير الرازي ١/٢٤-٣٠، مع زيادة أن هذا الحكم يجري على المطبوع بأيدي الناس. وذهب محسن عبد الحميد في كتابه: الرازي مفسرًا ٥٦ أنه كله للرازي لا يشك في ذلك. وإنما ذكرت هؤلاء لأنهم قرءوا التفسير كاملًا، وفي كتب القدماء إشارت إلى هذا الإشكال، تنظر في الأبحاث المذكورة. وقال الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور: «لما انتصب في آخر حياته لتصنيف التفسير تمكن من إخراج شيء منه في تحريره النهائي، وبقي شيء من الأمالي والمسودات بأيدي بعض تلاميذه، فأقبل على تصنيفه وتحريره، وألحق في ذلك الفرعَ بالأصل». التفسير ورجاله ١٠٦.

(٣) نظم الدرر ١/١٠.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

بلادنا... والشيخ -رحمه الله- سلك في تفسيره مسلك البيان والإيضاح، على نحو ما يقتضيه علم العربية وعلم تنقيح المعقول»[١].

ولا يكون إنكار العز بن عبد السلام لتفسيره من أجل التفسير بالمعقول دون المنقول، ولكن لاستشعار أن هذا مسلك جديد في التفسير، يجعل المفسر يرى أن له أن يستقل بالفهم، لا يهديه إلا قوانين العربية، ودلالة بعض الآي على بعض، لأنه لا سلف له في هذه المناسبات والعلاقات.

وقال الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ): «وله تفسير فيه أشياء عجيبة الأسلوب»[٢]، وقال: «وعمل تفسيرًا عجيبًا ملأه باحتمالات لا يحتمله الخطاب العربي أصلًا... وكان شيخنا مجد الدين التونسي يتغالى في تعظيم تفسيره»[٣]، وقال: «وصنف تفسيرًا ملأه بحقائقه ونتائج فكره»[٤]، وترى أنه يصف ما فيه بأنه عجيب، أي غير مألوف، وأن ذلك من عنده غير منقول، وأن ما جاء به لا تحتمله العربية، وأن من مشايخ الذهبي من كان يعظم هذا التفسير، وشيخه هذا نحوي مقرئ[٥]، وهذا يشكل على قوله: «لا يحتمله الخطاب العربي أصلًا»، على أنه لا يبعد أن يكون فيما جاء به من الافتعال الذهني الذي لا دليل عليه، وضعف بعضه لا يقتضي ضعف جميعه، ولا ضعف جميعه بمقتض لرد الاجتهاد في تعرف مراد الله، ووجوه إعجاز كلامه، ولطالما اجتهد الناس وأخطئوا.

وذكر البِقَاعي (٨٠٩-٨٨٥هـ) في معرض الرد على من عابوا تفسيره أنهم ما عرفوا تفسير الحَرَالِّي إلا من تنويهه به في صدر كتابه[٦]، وقد يخفى أمره على بعض الناس، ولكن التفسير

---

(١) عنوان الدراية ١/١٤٥-١٤٦.

(٢) تاريخ الإسلام (بشار) ١٤/٢٤٥.

(٣) سير أعلام النبلاء (الرسالة) ٢٣/٤٧.

(٤) ميزان الاعتدال (البجاوي) ٣/١١٤.

(٥) أبو بكر بن محمد (٦٥٦-٧١٨هـ)، وقرأ عليه الذهبي القراءات. معجم الشيوخ الكبير للذهبي ٢/٤١٧.

(٦) مصاعد النظر ١/١٣٧.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

كان معروفًا، كما يفهم من ترجمته عند الغبريني والذهبي، وهما قريبا عهد به، فشهرته لدى من تأخر عنهما أولى. وتنويه البقاعي بتفسير الحَرَالِّي هو قوله في أول كتابه:

«وانتفعت في هذا الكتاب كثيرًا بتفسير على وجه كلي للإمام الرباني أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسن التُّجِيبي الحَرَالِّي -بمهملتين مفتوحتين ومد وتشديد اللام- المغربي نزيل حماة من بلاد الشام، سماه: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل[(١)]... ثم بعد وصولي إلى سورة الأنفال ملكت جزءًا من تفسيره فيه من أوله إلى قوله: **(إن الله اصطفى)** في آل عمران، فرأيته عديم النظير، وقد ذُكِرتْ فيه المناسبات، وقد ذكرتُ ما أعجبني منها، وعزوته إليه، يسَّر الله الاطلاع على بقيته بحوله وقوته»[(٢)].

فهذا البقاعي مع إعجابه بتفسير الحَرَالِّي يأخذ منه ويدع، فالاجتهاد في هذا الباب يخطئ ويصيب، وتحفُّه قرائن القبول، أو يخلو منها. ولا يفوتك أنه يقول: إنه اطلع عليه بعد بلوغه سورة الأنفال، وإن ما اطلع عليه لا يجاوز أوائل سورة آل عمران، وهذا كله يرد ما ادعاه المُناوي (٩٥٢-١٠٣١هـ)، من أن تفسير الحَرَالِّي رأس مال تفسير البِقاعي وعمدته، قال في ترجمة الحَرَالِّي:

«وصنف تفسيرًا ملأه بحقائقه ودقائق فكره ونتائج قريحته، وأبدى فيه من مناسبات الآيات والسور ما يبهر العقول، وتحار فيه الفحول، وهو رأس مال البقاعي، ولولاه ما راح ولا جاء، ولكنه لم يتم، ومن حيث وَقَفَ وَقَفَ حال البقاعي في مناسباته»[(٣)].

---

(١) رسالة صغيرة في شيء كالقواعد للتفسير، انظرها في: تراث أبي الحسن المراكشي الحرالي ٢٤-٥٤.

(٢) نظم الدرر ١/١٠.

(٣) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية (صادر) ٢/٤٦٥، وعبارته في تعويل البقاعي عليه أخذها الزبيدي في التاج (الكويت) ٢٨/٦٩٣ بلا نسبة، وقال في صدر الكلام: «وتفسيره غريب مشحون بالفوائد، نقل منه البرهان البقاعي في تفسيره الذي سماه بالمناسبات غالبه أو أكثره، وهو رأس ماله...» إلخ عبارة المناوي.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

وكأنه لم يطلع على الكتابين، أو لم يمعن النظر فيهما، وعبارته في امتداح تفسير الحَرَالّي مقتبسة من الذهبي، قالها الذهبي في الذم، وأخذها المناوي في المدح، وتأمل كيف يكون التعويل على القريحة وحدها مذمة ومحمدة في آن! وتراه يجزم بأنه لم يتم، على أن البقاعي ظن أن له بقية، ورجا الاطلاع عليها، وكأن التُّنْبُكْتي (٩٦٣-١٠٣٦هـ) استفاد أنه لم يتم من البقاعي، فقال:

«والموجود من تفسيره من أوله إلى قوله تعالى: **(كلما دخل عليها زكريا المحراب)**، وهو تفسير حسن، وعليه نسج البقاعي مناسباته، وذكر أن هذا القدر هو الذي وقف عليه منه»[1].

غير أنه أخَّر موضع انقطاع قطعة التفسير نحو خمس آيات عما ذكر البقاعي، وقوله: «وعليه نسج البقاعي مناسباته» لم يصب المعنى لما سلف من أنه ابتدأه قبل الاطلاع عليه. ومنه أخذ المَقَّرِي (٩٩٢-١٠٤١هـ)، غير أنه فهم من كلام الغِبْرِيني أنه أتمه، قال:

«وظاهر كلام الغِبْرِيني أن تفسير الشيخ الحَرَالّي كامل، وقال بعضٌ: إنّه لم يُكَمَّل، وهو تفسير حسن، وعليه نسج البقاعيّ مناسباته، وذكر أن الذي وقف عليه منه من أوّل القرآن إلى قوله في سورة آل عمران: **(كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقًا)**»[2].

والذي قاله الغبريني: «وتكلم عليه لفظة لفظة وحرفًا حرفًا»، وهذا لا يقطع بعلمه بتمام التفسير، لأن يحتمل أنه أراد أن طريقته في التفسير أن يتتبع الآيات لفظة لفظة وحرفًا حرفًا، ولا سيما أن له كتبًا في علوم القرآن يلم فيها ببعض تفسير الآيات، واستفاد منها البقاعي، كما نقلت عنه قبل قليل.

وكان معاصرًا للحرَالّي أبو عبد الله المُرْسِي محمد بن عبد الله بن أبي الفضل (٥٧٠-٦٥٥هـ) ذكره معاصره أيضًا ياقوت الحوي (٥٧٤-٦٢٦هـ)، رحل من الأندلس ودخل مصر ودمشق

---

(١) نيل الابتهاج (طرابلس) ١/٣٢٠.

(٢) نفح الطيب (عباس) ٢/١٨٩.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

وحلب وبغداد وبلغ نيسابور، ولقيه ياقوت بالموصل، وقال ياقوت: «وتفسير القرآن سماه: ري الظمآن في تفسير القرآن، كبير جدًّا، قصد فيه ارتباط الآي بعضها ببعض»[١]، ونقل عنه أبو حيان (٦٥٤-٧٤٥هـ) في البحر إلى سورة الأنعام[٢]، وذكر له أبو حيان كتابًا آخر سماه: المنتخب[٣]، وكأنه أحد تفسيرين آخرين ذكرهما ياقوت، أحدهما متوسط والآخر صغير، ونقل عنه مرة في سورة الكهف باسم المؤلف ولم يذكر الكتاب[٤]، وذكر المنتخب في سورتي القلم والبروج[٥].

• إنكار العز بن عبد السلام:

وسلف حكاية إنكار العز بن عبد السلام (٥٧٧-٦٦٠هـ) على الحَرَالِّي وطلبه أن يخرج من مصر، وقد شرح العز رأيه في المناسبات بين الآيات في أواخر كتابه: «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز»، قال:

> «واعلم أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، ويتشبث بعضه ببعض، لئلا يكون [منقطعًا منبترًا][٦]، وهذا بشرط أن يقع في أمر متحد فيرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث، فضلًا عن أحسنه، فإن القرآن نزل على الرسول -عليه السلام- في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة، وما كان كذلك لا يتأتى فيه ربط بعضه ببعض، إذ ليس يحسن

---

(١) معجم الأدباء (عباس) ٢٥٤٧.

(٢) البحر المحيط (السعادة)، وأول التصريح باسم الكتاب في سورة البقرة: ٢٥٣/١، وآخره في سورة الأنعام: ١٧٧/٤.

(٣) البحر المحيط (السعادة) ١٦١/١، صرح باسم الكتاب واسم مؤلفه.

(٤) البحر المحيط (السعادة) ١٤٧/٦.

(٥) البحر المحيط (السعادة) ٣٠٨/٨ و ٤٥١.

(٦) الأصل: متقطعا متبرا.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضه ببعض مع اختلاف العلل والأسباب، ولذلك أمثلة: أحدها أن الملوك يتصرفون في حكمهم بتصرفات مختلفة... المثال الثاني: الحاكم يحكم في يومه بوقائع مختلفة... المثال الثالث: المفتي يفتي في مدة عمره أو في يوم من أيامه...»(١).

وهذا عجيب من الإمام، ذلك أن الكلام ليس على التدبير أو الحكم، بل على الكلام المعجز المتحدَّى بسورة منه، فما الذي جعل الآي والمعاني والأحكام المخصوصة تجتمع في سورة دون غيرها؟ ثم تكون السورة متشابهة متسقة في فواصلها وأسلوبها وصيغها اللغوية، فما الذي يُبعد أن تكون كذلك في معانيها وأحكامها؟ فالاتساق والتناسب أولى من الاختلاف والتنافر، وإن كان في بعض ما تلمَّسه الناس من ذلك تكلف، ففي بعضه قبول، وعليه أمارات الصحة واللِّيَاق.

وقد نقل هذا الفصل عن العز ملخَّصًا الزركشي، وأردفه بقولٍ كأنه يرد عليه، ولم يسم القائل، ولكن قال: «وقال بعض مشايخنا المحققين»(٢)، ونقله عن الزركشي البقاعي، وقال: «والشيخ المشار إليه هو العارف ولي الله محمد بن أحمد المَلَّوي المنفلوطي الشافعي (٧١٣-٧٧٤)(٣)، ومنه نقل السيوطي النسبة في الإتقان(٤)، قال المنفلوطي:

«قد وَهِم من قال: لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسَب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسَب الوقائع تنزيلًا، وعلى حسَب الحكمة ترتيبًا [وتأصيلًا](٥)، فالمصحف كالصُّحُف الكريمة على وَفْق ما في الكتاب المكنون، مرتَّبة سورُه كلُّها وآياته بالتوقيف، وحافظُ القرآن العظيم لو استُفتي

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز (العامرة) ٢٢١.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣٧/١.

(٣) نظم الدرر ٨/١.

(٤) الإتقان (المدينة) ١٨٣٨.

(٥) زيادة من نظم الدرر ٨/١.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سُئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يَتْلُ كما أفتى، ولا كما نزل مفرَّقًا، بل كما أُنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البيِّن أسلوبه ونظمه الباهر فإنه: ﴿**كتاب أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير**﴾، قال: والذي ينبغي في كل آية أن يُبحث أولَ كل شيء عن كونها مكمِّلة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علمٌ جمٌّ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[(١)].

وقضيتُه التفريق بين ترتيب النزول وترتيب التلاوة، فترتيب النزول مناسباته الحوادث، وترتيب التلاوة مناسباته سياق السورة وما قبل الآية وما بعدها، وما قبل السورة وما بعدها، وهو الترتيب الذي هو عليه في الكتاب المكنون أو اللوح المحفوظ. ومن المهم تنبيهه على الفرق بين الآي في المعنى الواحد في السورة تكون الصلة بينها ظاهرة، والآي في المعاني المختلفة، يبحث عن مناسباتها، وأيضًا مسايرتُه الكلامَ المردود عليه في مثال الإفتاء، فإنه تُجتلب له الآيات بحسَب المستفتَى فيه، وهي في المعنى الواحد، وهي مفرَّقة في المصحف، وهو يشبه تفريقها في النزول على الوقائع.

• إظهار علم المناسبات في بغداد:

ونقل الزركشي عن كمال الدين أبي الحسن الشَّهْرَابَاني (٥٩١-٦٧٢هـ) أنه ذَكَر أول من أظهر علم المناسبات في بغداد، بعد أن لم يكونوا يعرفونه، قال:

«وقال الشيخ أبو الحسن الشهراباني: أول من أظهر ببغداد علم المناسبة -ولم نكن سمعناه من غيره- هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لِمَ جُعلت

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/٣٧.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزْري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»[١].

ونفيُ العلم بذلك القصدُ منه نفي العناية والتتبع والوقوف عند كل آية وكل سورة لمعرفة المناسبات، لأن السابقين من المفسرين كانوا مُقِّلين في هذا الباب. وترى أنه جمع نوعين من المناسبات، وذلك الآيتان المتجاورتان، والسورتان المتجاورتان.

ولا يُعرف أبو بكر النيسابوري المذكور، لأن النسبة والكنية تصلح لكثيرين، وهو من المائة السابعة، لأن الناقل لخبره كذلك، وهو يقول: «ولم نكن سمعناه من غيره»، وجعله الأستاذ أبو الفضل إبراهيم في تعليقه على برهان الزركشي من المائة الثالثة، فترجم لذي نسبة وكنية كذلك من المائة الثالثة، وهذا لا يكون، وتبعه كثيرون، ونبه على هذا الخطأ بحث بعنوان: «أضواء على ظهور علم المناسبة»، للدكتور عبد الحكيم الأنيس[٢]، وذكر نصًّا مهمًّا لابن أبي الحديد (٥٨٦-٦٥٦هـ) يعيب فيه عناية الضياء بن الأثير (٥٨٥-٦٢٢هـ) بتفسير المتشابه اللفظي في القرآن بزيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو تبديل لفظ بلفظ، ويذكر أن رجلًا ورد بغداد كان معنيًّا بهذا يَظن الدكتور الأنيس أنه ربما يكون هو الذي عناه الشهراباني، قال ابن أبي الحديد:

«وهذه المعاني قد صُنِّفت فيها الكتب الكثيرة، وتكلف الناس من قبله استنباط أمثال هذه الوجوه الغامضة، والمعاني الخفية، من القرآن العزيز، وقد قيل في هذا الفن أقوال طويلة عريضة أكثرها بارد غث، ومنها ما يشهد العقل وقرائن الأحوال أنه مراد، وقد ورد إلينا في مدينة السلام في سنة اثنتين وثلاثين وستمائة رجل من وراء النهر كان يتعاطى هذا... كنا نعجب منه ونستظرفه»[٣].

---

[١] البرهان في علوم القرآن ٣٦/١.

[٢] مجلة الأحمدية، العدد ١١، سنة ١٤٢٣هـ، ص ١٦-٦٠.

[٣] الفلك الدائر وهو ملحق بالمثل السائر ٢٣١/٤.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

ولا يبعد أن يكون هو المراد، لأن تفسير المتشابه من أنواع التناسب، فهو يتعلق بسياق الآيات المجاورة، ومقصد السورة، فهي علاقات مترابطة، والسؤال عن مناسبات الآيات والسُّوَر يجرُّ إلى السؤال عن علل المتشابه، وعكسُه يكون أيضًا، ولذلك قال السيوطي: «وهذا النوع يتداخل مع نوع المناسبات»(١).

• ابن الزبير الغرناطي وتناسب السور:

وكان ممن جمع بين التأليف في النوعين التشابه والتناسب أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (٦٢٧-٧٠٨هـ)، فله كتاب: «مِلاك التأويل» في توجيه المتشابه، و«البرهان» في تناسب السور، وقال في مقدمته:

«تأملت... وجوه ارتباطاته، وتلاحم سوره وآياته، إلى ما يلتحم مع هذا القبيل، من عجائب شواهد التنزيل، فعلَّقت في ذلك ما قُدِّر لي، ثم قطعَتْ بى قواطع الأيام عن تتميم رَوْمى من ذلك وعملي، فاقتصرت بحكم الاضطرار في هذا الاختصار على توجيه ترتيب السور، وإن لم أر في هذا الضرب شيئًا لِمَنْ تقدَّم وغَبَر، وإنما بَدَر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات... أما تعلُّق السور على ما تَرَتَّبَتْ في الإمام، واتفق عليه الصحابة الأعلام، فمما لم يُتَعرَّض له فيما أعلم، ولا قرع أحدٌ هذا الباب ممن تأخر أو تقدم، فإن صلَّى أحدٌ بعدُ فهذه الإقامة، أو أتمَّ فمرتبِطٌ حتمًا بهذه الإمامة، فإن أنصف فلا بد أن يُنْشِد إذعانًا للحق وإنابة: فلو قَبل مَبكاها بَكَيْتُ صبابة»(٢).

---

(١) الإتقان (المدينة) ١٨٦٦.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ٧٦-٧٧. يشير بآخر قوله إلى شعر نُصيب بن رَبَاح الذي يقول فيه:

فلو قبلَ مَبْكَاها بكيتُ صبابةً ... بسُعْدَى شفيتُ النفسَ قبل التَّنَدُّمِ

ولكن بَكَتْ قبلي فهَيَّجَ لي البُكَى ... بُكاها، فقلت: الفضلُ للمُتَقَدِّمِ

يذكر حمامة ناحت فأبكته، والمقصود الجملة الأخيرة منه: «الفضل للمتقدم»، وهو شعر شائع يُتمثل به. انظره في الحيوان (هارون) ٢٠٦/٣ مثلًا.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

فهو قد كتب في النوعين تناسب الآي وتناسب السور، ولكنه لم يبرز إلا هذا الكتاب في تناسب السور، ولا شك أن الأول أطول لو كان، ويقتضي وضع تفسير تام، كما سيفعل البقاعي من بعد ويُضمِّن كتاب ابن الزبير في كتابه. وهو يرى أنه لم يُسبق إلى هذا الفن، وقد سُبق إليه، كما سلف، والذي سَبق هو إليه تتبع ذلك في كل سور القرآن الكريم، ولذلك لم يذكر الزركشي غيره فيمن أفرد هذ العلم بالتصنيف[(١)]، لكن الزركشي قصد التناسب بين الآي، وابن الزبير قصد التناسب بين السور، وثنى السيوطي بكتاب البقاعي[(٢)]. وهذا التناسب كثيراً ما يُعَوَّل فيه على بعض الآيات أو الألفاظ في السورتين، وقد تكون المناسبة بين مقصود كلٍّ من السورتين، وهو ما وعاه البقاعي لما نقل كتاب ابن الزبير إلى كتابه، قال:

«فعِلْم مناسبات القرآن علمٌ تُعرف منه علل ترتيب أجزائه... وتتوقَّف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جُمَلها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، ونسبتُه من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو، وطالعتُ على ذلك كتاب العلامة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الأندلسي المُعْلَم بالبرهان في ترتيب سور القرآن، وهو لبيان مناسبة تعقيب السورة بالسورة فقط، لا يتعرض فيه للآيات، وسأذكر في أول كل سورة ما قال فيها بلفظه»[(٣)].

وعلى أن الغرناطي شيخ أبي حيان (٦٥٤-٧٤٥هـ) وقد ذكره في تفسيره البحر المحيط كثيراً - لم يذكر أبو حيان كتاب شيخه هذا، ولم ينقل عنه، فيما أعلم، وكأنه يرى ما رآه ابن عاشور من بعد أن البحث في تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض ليس حقًّا على المفسر[(٤)]، وإن

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/٣٥.

(٢) الإتقان (المدينة) ١٨٣٦.

(٣) نظم الدرر ١/٦.

(٤) التحرير والتنوير ١/٨.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

كان قد ذكر كثيرًا من مناسبات الآيات، وجعله من منهجه في مقدمة تفسيره[١]، وذكر بعضًا من مناسبات السور أيضًا[٢].

• الفقه والنظم عند الشاطبي:

ونبه الإمام أبو إسحاق الشاطبي (-٧٩٠هـ) على الفرق بين نظم السورة من جهة البيان والإعجاز، وما تضمنته من قضايا الأحكام التي يستنبطها الفقيه، وشَرَح بهذه المناسبة كيف تكون السورة دائرة على معنى واحد من جهة البيان، وضرب مثلًا بسورة المؤمنون، وهذا يشبه ما سلف مما نقلته عن الملّوي المنفلوطي فيما رد به على العز بن عبد السلام. قال الشاطبي:

> « الكلام المنظور فيه تارةً يكون واحدًا بكل اعتبار، بمعنى أنه أُنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور المفصل، وتارة يكون متعدِّدًا في الاعتبار، بمعنى أنه أُنزل في قضايا متعدِّدة، كسورة البقرة وآل عمران والنساء... ولكن هذا القسم له اعتباران: اعتبار من جهة تعدد القضايا، فتكون كل قضية مختصة بنظرها، ومن هنالك يُلتمس الفقه على وجه ظاهر لا كلام فيه... واعتبار من جهة النظم الذي وجدنا عليه السورة، إذ هو ترتيب بالوحي لا مدخل فيه لآراء الرجال، ويشترك معه أيضا القسم الأول، لأنه نظم ألقي بالوحي، وكلاهما [أي من هذه الجهة] لا يُلتمس منه فقه على وجه ظاهر، وإنما يُلتمس منه ظهور بعض أوجه الإعجاز»[٣].

فالوجهان النظمي والحكمي للكلام يقتضيان نظرين مختلفين من البحث والاستنباط، فأحدهما لجهة البناء والتناسق لأجزاء السورة، والآخر لجهة الحكم المستفاد من الآية أو الآيات في الباب أو المسألة، ولطالما استشهد الناس بالبيت من القصيدة، أو القطعة من الحديث، أو الآية أو

---

[١] البحر المحيط (السعادة) ١/٤.

[٢] البحر المحيط (السعادة) ٢/٣٧٤.

[٣] الموافقات (دراز) ٣/٤١٤-٤١٥.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

بعض الآية من السورة، على معنى في علم من العلوم، حتى إنه يقال فيه: هذا محل الشاهد، أو وجه الاستشهاد، وهذا لا يُخرج الجزء المستشهد به عن أن يكون بعضًا من بناء كبير ينتمي إليه، ولا يخرجه أيضًا -وهذا من وجوه الإعجاز الذي تفرد به القرآن- أن يكون نازلًا لسبب، ومتعلقًا بحادثة، ثم جُمع في بناء قرآني سماه الله تعالى سورة، وتحدى بها، وجعل هذا التحدي برهان النبوة. ثم ضرب الشاطبي مثلًا لبناء السورة على معنى تدور عليه أجزاؤها عليه بسورة المؤمنون، قال:

«وسورة المؤمنون نازلة في قضية واحدة، وإن اشتملت على معان كثيرة، فإنها من المكيات، وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان [الوحدانية والنبوة والبعث]، أصلها معنى واحد، وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى... إلا أنه غلب على نسَقها ذِكْر إنكار الكفار للنبوة التي هي المدخل للمَعْنَيَيْن الباقيين، وأنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ترفعًا منهم أن يُرسَل إليهم من هو مثلهم، أو ينال هذه الرتبة غيرهم إن كانت، فجاءت السورة تبين وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها، وبأي وجه تكون على أكمل وجوهها حتى تستحق الاصطفاء والاجتباء من الله تعالى»[١].

ثم أخذ في تتبع أجزاء السورة، وشَرْح رَدِّها إلى هذا المعنى الكلي، وقال في ختام ذلك: «ومن أراد الاختبار في سائر سور القرآن فالباب مفتوح والتوفيق بيد الله. فسورة المؤمنون قصة واحدة في شيء واحد»[٢]. وانظر إلى هذا التحريض على تتبع ذلك في كل سور القرآن. فهذه درجة مستحدثة في علم المناسبات، سبقت البقاعي، فمن قبل كانت المناسبات مقصورة على ما تجاور من الآية والآية، والسورة والسورة، وهذه إشارة مهمة إلى أن السورة يمكن أن تُرَدَّ إلى معنى واحد يجمع كل أجزائها ومعانيها، وإذا رُدَّت إلى معنى واحد كان هو المناسبة التي تجمع

---

(١) الموافقات (دراز) ٣/٤١٦-٤١٧.

(٢) الموافقات (دراز) ٣/٤١٩.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

آياتها، وهو المناسبة التي تصلها بما قبلها وما بعدها من السور، فيتجاوز هذا النسقُ الارتباطَ اللفظي بين لفظة ولفظة، أو الجزئي بين آية وآية في السورتين، إلى الارتباط العام بين المعنيين اللذين يجمعان آي كلٍّ من السورتين.

• **بصائر الفيروزآباذي:**

وألف مجد الدين الفيروزآباذي (٧٢٩-٨١٨هـ) كتابًا في علوم القرآن، سماه: «بصائر ذوي التمييز، في لطائف الكتاب العزيز»، تتبع فيه سور القرآن، وذكر في كل سورة ما يتعلق بها، نزولها، وعدَّ آيها وكلماتها وحروفها، وحروف فواصلها، واسمها أو أسماءها، وناسخها ومنسوخها، ومتشابهها، وفضلها، ومن ذلك فصل سماه: «مقصود السورة وما هي متضمِّنة له»[(١)]، فيكون أول كتاب بلغنا في مقاصد كل سور القرآن، ويكون كتاب ابن الزبير الغرناطي أول كتاب بلغنا في اتصال السورة بالسورة في كل القرآن. وطريقة المجد في المقاصد تشبه طريقة ابن عاشور فيما سماه أغراض السورة، فهو يعددها سردًا، ولا يكاد يردها إلى معنى واحد يجمعها، فيقول المجد في مقصد سورة الفاتحة:

> «المقصود من نزول هذه السورة تعليم العباد التيمُّن والتبرك باسم الله الرحمن الرحيم فى ابتداء الأمور، والتلقين بشكر نِعَم المنعم، والتوكل عليه فى باب الرزق المقسوم، وتقوية رجاء العبد برحمة الله تعالى، والتنبيه على ترقب العبد الحساب والجزاء يوم القيامة، وإخلاص العبودية عن الشرك، وطلب التوفيق والعصمة من الله، والاستعانة والاستمداد فى أداء العبادات، وطلب الثبات والاستقامة على طريق خواص عباد الله...إلخ»[(٢)].

---

(١) بصائر ذوي التمييز ٥٦/١.

(٢) بصائر ذوي التمييز ١٢٩/١.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

• الزركشي في علوم القرآن:

ثم كان بدر الدين الزركشي (٧٤٥-٧٩٤هـ)، وجعل علم المناسبات من علوم القرآن في كتابه «البرهان في علوم القرآن»، وصنف الكتاب على بضعة وأربعين نوعًا، وجعل علم المناسبات النوع الثاني منها، وكأن تقديمه لهذا النوع من أجل جِدَّته لذلك العصر، وكتب في ذلك الفصل مقدمة نظرية في هذا الفن، وقال في أوله: «أفرده بالتصنيف أبو جعفر بن الزبير، شيخ الشيخ أبي حيان، وتفسير الإمام فخر الدين فيه شيء كثير من ذلك... وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته»[1]، وذكر كلمة ابن العربي في سراج المريدين من أنه ألف فيه ثم طواه، وقول الشهراباني في أول ظهور الفن في بغداد، ورأي ابن عبد السلام في إنكاره، ورد المنفلوطي عليه، وإن لم يسمه، ثم قال: «وهو مبني على أن ترتيب السور توقيفي»[2]، وذكر أمثلة للمناسبات بين السور، ثم قواعد وأمثلة في ارتباط الآي بعضها ببعض.

• تفسير البِقَاعي:

وفي المائة التاسعة كان تفسير برهان الدين البقاعي (٨٠٩-٨٨٥هـ) الذي سماه: «نظم الدرر، في تناسب الآيات والسور»، تتبع فيه كل سور القرآن وآيه لبيان المناسبات ومقاصد السور، ولعله أول كتاب صُنِّف على هذا المنهاج، أو أول كتاب يصل إلينا، وقال في أوله: «... في فنٍّ ما رأيت من سبقني إليه»[3]، وعني فيه بكل وجوه المناسبات، من المناسبة بين الآية والآية، والسورة والسورة، ومقصود السورة -وهذا المصطلح الذي سار عليه- وعلاقة اسمها بمقصودها، واتصال أولها بآخرها، وضمَّ إليه كتاب ابن الزبير في تناسب السور لصغره، ففي كل سورة يورد قوله، وأشار في صدره إلى كتاب الزركشي في علوم القرآن، وأورد في المقدمة طرفًا مما ذكره في نوع المناسبات، وذكر أنه انتفع بتآليف الحَرَالِّي، ولا سيما تفسيره، وقد وقف على قطعة منه

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/٣٥-٣٦.

(٢) اللبرهان في علوم القرآن ١/٣٨.

(٣) نظم الدرر ١/٢.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

إلى قوله تعالى: (**إن الله اصطفى آدم ونوحًا**)، وذلك بعده بلوغه في تفسيره سورة الأنفال، وعرَّفَنا بتفسير ابن النقيب الحنفي (٦١١-٦٩٨هـ)، وقال:

«وبعد أن وصلت إلى سورة الكهف ذُكر لي أن تفسير ابن النقيب الحنفي - وهو في نحو ستين مجلدًا، يذكر فيه المناسبات... فطلبت منه جزءًا فرأيت الأمر كذلك بالنسبة إلى الآيات لا جملها، وإلى القصص لا جميعها، ومن نظر كتابي هذا مع غيره علم النسبة بينهما»[١].

ووصفُه لما في تفسير ابن النقيب -وهو سابق له بقرنين- غير جلي، لكنه يفيد أن ما فيه من تتبع المناسبات قليل بالقياس إلى كتابه، وأنه ليس فيه المناسبات بين السور، وقد يكون قوله: «وإلى القصص لا جميعها» أنه يبين مناسبة الطائفة من الآيات في قصة -أي في معنى أو شأن- ولا يتتبع الآيات آية آية، ويكون الضمير في: «جملها» للمناسبات، أي مناسبات الآيات، لا جمل المناسبات، من مناسبات السور ومقاصدها وأسمائها ومطالعها وخواتيمها، وقد يكون في الكلام تحريف.

ثم قال يبين أن هذا المسلك ليس هينًا، ولا يأتي بميسور الجهد، وإن رآه الناظر لأول وهلة كذلك، قال: «فلا تظنن -أيها الناظر لكتابي هذا أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها، والرفع لستورها، فرب آية أقمت في تأملها شهورًا»[٢]، وهذا حق، فإن تطلب الحكمة والمعنى في تجاور السور والآي والأغراض، وخصوصية كل شيء من ذلك في موقعه، واختلافه عن نظيره في موقع آخر، ولا سيما السور المكية، إذ تتشابه فيها الأغراض والمعاني، ولا بد لكل سورة من خصوصية، ولا بد لكل مساق من تفرد، وهو الذي يقتضيه التعدد - لا يتأتى اليسير منه إلا بعد إجهاد الذهن، وتكرار النظر، وقد يصيب وقد يخطئ وقد يُبعد.

---

(١) نظم الدرر ١/١٠.

(٢) نظم الدرر ١/١٥.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

ثم ذكر في أول كلامه على سورة الفاتحة عن شيخه أبي الفضل المَشَدَّالي[١] (٨٢١-٨٦٤هـ) قاعدة في تعرف مناسبات الآيات والسور، قال:

«قال شيخنا الإمام المحقق أبو الفضل محمد... المَشَدَّالي المغربي... : الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أن تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب هذه المقدمات من القرب أو البعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغةُ شفاءَ الغليل [فيها، و] يدفع عناءُ الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصَّلًا بين كل [آية آية] في كل سورة سورة»[٢].

وهذا يشبه ما سلف عن الشاطبي من الانتباه إلى المعنى الجامع للسورة الذي يبين ارتباطاتها وعلاقاتها الداخلية والخارجية، وإلى أن هذا مفتاح للفهم يجري في كل سور القرآن، وهذا ما صاغة البقاعي بقوله: «وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها»[٣]، لكن البقاعي قلَّ انتفاعه بهذه القاعدة، بما أدخله عليها من زيادة غير لازمة، وذلك أنه اتخذ اسم السورة دائمًا دليلًا على مقصودها أو معناها الكلي، واسمُ السورة يكون توقيفًا ويكون

---

[١] الضبط بالحروف في الدرر الكامنة ٣٦٠/٤ غير أنه في مطبوعة الهند منه: «وتشديد اللام»، وفي الضوء اللامع قال مرة ٢٩٠/٨: «وتشديد الدال»، وقال مرة ١٨٠/٩: «وتشديد اللام»، وفي نيل الابتهاج ٥٣٨/١: «وشد الذال»، أي المعجمة، وكذلك في نزهة الأنظار ٦٠٣/١، وقال المعلق عليه: لغة البربر لا ذال فيها، وفي البدر الطالع ٢٤٧/٢: «وتشديد اللام»، وأظن أن اللام تحريف عن الدال.

[٢] نظم الدرر ١٨/١. وعن الضوء اللامع ١٨٥/٩: «آية آية»، وفي الأصل: «آية وآية» بالعطف. والزيادة الأولى يستقيم بها الكلام.

[٣] مصاعد النظر ١٤٢.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

توفيقًا، ويكون للسورة غير اسم، فهو إن لم يكن توقيفًا مأثورًا يصلح للاستئناس إذا حفت به قرائن أخرى.

وجاء في الضوء اللامع في التعليق على هذه القاعدة: «وقد كان شيخُ المذهب الحنبلي وقاضيه العز الكناني (٨٠٠-٨٧٦هـ) -رحمه الله- يحلف أن قائلها فضلًا عن ناقلها لا ينهض لتمشيتها في أقصر السور»[١]، جاء هذا في ترجمة المَشَدَّالي، وأما ترجمة البقاعي في الضوء[٢] فترجمة مظلمة، وهي من قبيل ما يكون بين الأقران من التباغض، ومثلُها كثير في هذا الكتاب.

وللبقاعي كتاب آخر دعاه: «مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور»، لخصه من تفسيره الكبير في المناسبات، فاقتصر فيه على ذكر مقصد السورة، وألحق به فضائلها ونزولها وعد آيها، وصدَّره بذكر أنواع من علوم القرآن وفضائله ضمن الكلام على سورة الفاتحة، وأورد في مقدمته تقاريظ العلماء لتفسيره، وما جرى بينه وبين آخرين أنكروا طريقته في التفسير، وليس الخلاف بينه وبينهم راجعًا إلى التفسير فحسب، ولكن كانت له معارك في قضايا أخرى كان منها ما يتعلق بالتفسير[٣].

ومن مزايا تفسير البقاعي التي يقل الالتفات إليها عنايته بتفسير المتشابه بتقديم أو زيادة أو بدل[٤]، وهذا من وجوه التناسب التي يرجع بعضها إلى عمود السورة، وبعضها إلى سياق الآية فيما جاورها، وبعضها إلى علاقات السور المتجاورة، وكلها وجوه من التناسب تجعل الفنين التناسب والتشابه متخادمين ومتداخلين، وكل ذلك مرده إلى تفسير الخصوصية، ومحاولة جواب

---

[١] الضوء اللامع ١٨٥/٩.

[٢] الضوء اللامع ١٠١/١.

[٣] انظر مقدمة مصاعد النظر (١٥٦-٩٧/١) الطويلة وما فيها من شكوى وأجوبة واحتجاج، وقد أشار إلى كتابه هذا وما ضمنه فيه في ختام التفسير (نظم الدرر ٤٤٣/٢٢)، وفي هذه الخاتمة نحو ما في مقدمة مصاعد النظر من الإشارة التي القضايا والمعارك التي كانت بينه وبين العلماء الذين خالفوه.

[٤] انظر أمثلة من ذلك في رسالة ماجستير بعنوان: «التناسب القرآني عند الإمام البقاعي»، لمشهور موسى مشاهرة، بالجامعة الأردنية، سنة ٢٠٠١م، الفصل الثالث منها المعنون: «التناسب وبعض الظواهر السياقية» ص ١٤٤-٢١٠.

السؤال عن العلة في كل ما يتعلق بالقرآن، وهذا بحر لا ساحل له، وهو من أعظم وجوه الإعجاز.

• **تصانيف السيوطي:**

وللجلال السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) عصري البقاعي تصانيف في علوم القرآن اعتنى فيها بعلم المناسبات، ومنها كتابه: «الإتقان في علوم القرآن»، جعله فيه النوع الثاني والستين، غالبُه من كتاب الزركشي، فذكر كتاب ابن الزبير كما ذكره الزركشي، وزاد أن قال:

> «ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سماه: نظم الدرر في تناسب الآي والسور، وكتابي الذي صنفته في أسرار التنزيل كافل بذلك، جامع لمناسبات السور والآيات، مع ما تضمنه من بيان جميع وجوه الإعجاز، وأساليب البلاغة، وقد لخصت منه مناسبات السور في جزء لطيف سميته: تناسق الدرر في تناسب السور»[١].

والفصل برمته في معترك الأقران فيما سماه: الوجه الرابع من وجوه الإعجاز[٢]، وكتابه الذي قال فيه هنا: في أسرار التنزيل، سماه: «قطف الأزهار في كشف الأسرار»، والموجود منه إلى أثناء سورة التوبة، وكأنه لم يتمه، وبيَّن في مقدمته منهاجه، فقال:

> «أذكر فيه جميع ما وصل إليه علمي من كلام العلماء في النظم القرآني، من أسرار التقديم والتأخير، والتأكيد والحذف، والإيجاز والإطناب، والنكت البيانية... والأنواع البديعية... وسر ما اختلفت فيه الآيات من المتشابه... وما بين الكلمات التي يظن ترادفها من فرق... وأنبه على القراءات المشهورة

---

[١] الإتقان (المدينة) ١٨٣٦، وكتابه في مناسبات السور نشر بعنوان مغير، وهو: أسرار ترتيب القرآن، ونشر باسمه أيضًا.

[٢] معترك الأقران (البجاوي) ٥٤/١.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

والشاذة إذا كان لكل قراءة معنى... وأبين مناسبة ترتيب السور، والخفي من مناسبات الآيات»[١].

وهو على طريقته في إيراد ما في كتب السابقين في المسألة، وهو كتاب يجمع عدة فنون، منها أساليب البلاغة، وتوجيه القراءات، وتفسير التشابه، وتبيين التناسب، ولخص منه المناسبات في ترتيب السور في كتاب: «تناسق الدرر»، كما قال في الإتقان.

• عود الشبهة مع الشوكاني:

وأعاد الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ) في أوائل تفسيره: «فتح القدير» الشبهة التي ذكرها من قبل العز بن عبد السلام في إنكار البحث في المناسبات بين الآيات والسور، وهي أن القرآن نزل منجمًا على الحوادث، وهي متخالفة، وزاد أن القرآن لم يكن مرتبًا هذا الترتيب، وإنما رتبه الصحابة، يريد ترتيب السور، وأن القرآن جاء على أساليب العرب في أشعارها وخطبها، وهي تكون في أغراض شتى في الموقف الواحد، وفي المواقف المتباعدة، ولا يتأتي الجمع بينها أو تطلب مناسبات لها. وهذا عجيب في تمثيل كلام الله المعجز المتحدى به بكلام البشر، فإن القرآن عربي في ألفاظه وقوالبه وقواعده، لا في أساليبه المعجزة، ولو كانت أنحاء بيانه كمثل أنحاء بيانهم ما أعجزهم وقطع آمالهم من مجاراته والإتيان بمثله، وكان حجة عليهم بالغة تخضع لها الأعناق. على أن كلام البشر ليس خاليًا البتة من المناسبات في ارتباط بعض أجزائه ببعض، قال الشوكاني في كلام طويل عند قوله تعالى: **(يا بني إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم)** في الموضع الأول من البقرة، ففيه انتقال من قصة آدم إلى خطاب هؤلاء:

«اعلم أن كثيرًا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف... واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاءوا

---

[١] قطف الأزهار ٩٥-٩٨.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرَّقًا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل إليه، وكل عاقل فضلا عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالا، وتحليل أمر كان حراما...»[١].

وذكر أن هذا يفتح باب الريب في القرآن، إذ يظن الجاهل أن هذه المناسبات لا بد منها، وأنه لا يتحقق إعجاز القرآن إلا بها، فإذا رجع إلى ما ذكروه وجده متكلَّفًا. وهذا كله منه في غير محله، فما زال اجتهاد العلماء في تطلب مزايا النظم القرآني، ويهديهم الله إلى شيء بعد شيء منه، وكل اجتهاد فيه خطأ وصواب، وابتعاد واقتراب، وما كان الجزم في مثل هذه الأمور، أو ضمان الإصابة، بمتيسر، وكثير منه مرجعه إلى الذوق، فما حفت به علامات القبول من النظائر القرآنية، والمعالم السياقية، والآثار النبوية، كان حريًّا بانشراح الصدر الله، وتلقيه بالقبول، ولا يكون هو الغاية في بابه، ولا هو كل ما هنالك، بل ما خفي من هذه الأسرار فوق ما ظهر، وكثيرًا ما تختلف الأنظار في تبين المناسبات وتكون كلها صوابًا ومرادًا، إذ المظنون أن العلاقات كثيرة ومتداخلة.

ولا يعدم الناظر في تفسير الشوكاني من ذكر المناسبات بين الآيات، على إنكاره على من تطلبها، وهذا يدل على أن التناسب من البلاغة، ومما يرتاح إليه الإنسان، لأن ضده التنافر واجتماع المختلفات بلا رابط ولا صلة، وهذا في كلام البشر نقص، وكلام الله تعالى أبعد عن

---

[١] فتح القدير (الحلبي) ١/٥٨-٥٩. وقد نقل قوله برمته صديق حسن خان في تفسيره فتح البيان ١/٩٨-١٠٠ بلا إشارة إلى أصله.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

ذلك، بل هو في غاية من النظام لا يحيط المتأمل بكنهها، ولا يبلغ منها إلا الشيء اليسير بعد الجهد. قال الشوكاني عند قوله تعالى: **(ضرب الله مثلًا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط)**:

> «قال يحيى بن سلَّام (١٢٤-٢٠٠هـ): ضرب الله مثلًا للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله ﷺ حين تظاهرتا عليه. وما أحسن ما قال! فإن ذكر امرأتي النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله ﷺ يرشد أتم إرشاد، ويلوح أبلغ تلويح، إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله، فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئا...» [(١)].

فهذه مناسبة بين آيتين في سورة واحدة، استحسنها الشوكاني وفرح بها، ولو أخذنا بقوله الأول في إنكار ذلك لفاتت فوائد من مثل هذه تزيد البصر بمعاني القرآن ومواعظه ومراميه، فهو يضرب الأمثال الظاهرة والخفية، ويعطف المعاني بعضها على بعض، ويلحق النظائر والأشباه بعضها ببعض، ولا تتبين إلا بعد التدبر، وإلا بعد إعادة النظر مرة بعد مرة.

• تفسير المنار والمناسبات:

ولما كان تفسير المنار يتجه إلى التجديد في التفسير، وإلى مسايرة طبيعة العصر، من اتساع العلوم الكونية، والسؤال عن علل الأشياء، وإلى بيان المعنى والمقصد في أحكام الشرع، ورد المطاعن، وكشف الشبهات، مع ما عليه المسلمون من ضعف وغلبة للتقليد، كان من المتوقع في تفسير المنار أن يُعنى بتفسير نظم الآي والسور، ولا سيما أن من مراجعه التي يعوِّل عليها ويناقشها تفسير الفخر الرازي، وروح المعاني للآلوسي، فالأول اعتنى بتناسب الآي، وزاد عليها الآلوسي مناسبات السور، وأخذ الآلوسي غالب ذلك من السيوطي في كتابه الذكور قريبًا.

---

(١) فتح القدير (الحلبي) ٥/٢٤٨.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

وكان أصل التفسير تفسير الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ = ١٨٤٩-١٩٠٥م)، إلى أثناء سورة النساء، ولذلك جعلت الكلام عليه هنا حيال زمن الشيخ محمد عبده، وكان الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ = ١٨٦٥-١٩٣٥م) ينقل ويلخص وينقح ويزيد، ثم استقل بالتفسير بعد ذلك إلى أثناء سورة يوسف.

وقال الشيخ رشيد: «ولعمري إن وجوه الاتصال بين الآيات وما فيها من دقائق المناسبات لهي ضرب من ضروب البلاغة، وفن من فنون الإعجاز، إذا أمكن للبشر الإشراف عليه فلا يمكنهم البلوغ إليه»[1]، وفي هذا التفسير كثير من ضروب بيان المناسبات، ولكن يهمني المنهج النظري، وصورة هذا المعنى في ذهن الدارس أو المفسر، وقد قال في أول تفسير سورة البقرة: «وقد رأينا أن نستدرك قبل الشروع في تفسيرها ما فاتنا في آخره من تلخيص ما اشتملت عليه من الدعوة إلى الإسلام، وما فيها من العقائد والأحكام، وقواعد الدين وأصول التشريع»[2]، فسرد كليات المعاني في السورة، ولكنه لم يستخلص منها معنى واحدًا، على أنه في المناسبات في ترتيب السور يقترب من معنى جامع في السورة، وإن بقي على طريقة غالب السابقين من التنسيب بين السور في جزئيات المعاني أو أفراد الألفاظ أو الآي. لكنه في أول تفسير سورة الأنعام ذكر جملة من البيان في نظام ترتيب السور مهمة، قال:

> «من نظر ترتيب السور كلها في المصحف يرى أنه قد روعي في ترتيبها الطول والتوسط والقصر في الجملة، ومن حكمته أن في ذلك عونًا على تلاوته وحفظه، فالناس يبدءون بقراءته من أوله فيكون الانتقال من السبع الطُّوَل إلى المئين فالمثاني فالمفصل أنفى للملل وأدعى إلى النشاط، ويبدءون بحفظه من آخره لأن ذلك أسهل على الأطفال، ولكن في كل قسم من الطُّوَل والمئين والمفصل تقديمًا لسور قصيرة على سور أطول منها، ومن حكمة ذلك إنه قد روعي

---

(١) تفسير المنار ٢٤٦/١.

(٢) تفسير المنار ١٠٥/١.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

التناسب في معاني السور، مع التناسب في السور، أي مقدار الطول والقصر»[١].

يقول: إن ترتيب السور جرى على تقديم بالأطول، فتجد السور تقصر كلما مضيت في المصحف، غير أن هذه القاعدة تتخلف في بعض السور، فيتقدم ما هو أقصر على ما هو أطول لدواعي المناسبات المعنوية بين السور، ثم زاد الأمر بيانًا بالتفصيل، فقال:

«وقد تَقَدَّمَ هذه السورةَ أربعُ السور الطولى، وهي بعد الفاتحة التي لا يراعى مناسبتها لما بعدها وحده، إذ هي فاتحة القرآن كله، وهذه السور الأربع مدنية... وقد جاء بعدهن سورتا الأنعام والأعراف المكيتان، وبعدهما سورتا الأنفال والتوبة المدنيتان، ويقعان في أوائل الربع الثاني من القرآن، وما بعدهما من سور النصف الأول من القرآن كله مكي، وسور الربع الثالث كلها مكية أيضا إلا سورة النور فإنها مدنية، وإلا سورة الحج فهي مختلف فيها، والتحقيق أنها مختلطة، وأما الربع الرابع فهو مختلط وأكثره سور المفصل التي تُقرأ كثيرًا في الصلاة، فينبغي بيان مناسبة جعل سورتي الأنعام والأعراف بعد الأربع المدنية الأولى وقبل السورتين المدنيتين اللتين بعدهما ثم مناسبة الأنعام للمائدة خاصة»[٢].

فهو هنا يبحث لا في مناسبة سورة لسورة، ولكن في نظام السور كله، ويبنيه على قاعدتين، لفظية، أي مقدار الطول، ومعنوية أي المقاصد والمعاني، ومن المقاصد مدنية السورة أو مكيتها، لأن النزول متصل بالمعنى والمخاطَبين وأطوار السيرة، وتفصيلُ الإجمال وجواب السؤال بيَّنَه في قوله:

---

[١] تفسير المنار ٧/٢٨٧.

[٢] تفسير المنار ٧/٢٨٨.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

«سورة البقرة أجمع سور القرآن لأصول الإسلام وفروعه... والسور الطُّوَل التي بعدها متممة لما فيها، فالثلاث الأولى منها مفصِّلة لكل ما يتعلق بأهل الكتاب، ولكن البقرة أطالت في محاجة اليهود خاصة، وسورة آل عمران أطالت في محاجة النصارى في نصفها الأول، وسورة النساء حاجتهم في أواخرها، واشتملت في أثنائها على بيان شئون المنافقين مما أجمل في سورة البقرة، ثم أتمت سورة المائدة محاجة اليهود والنصارى فيما يشتركان فيه، وفيما ينفرد كل منهما به»[١].

فقد وصل كما ترى بين السور في معنى من المعاني، وهو محاجة أهل الكتاب والمشركين، وبيان شئون المنافقين، ثم بيَّن الداعي إلى تقديم هذا المعنى في السور الطُّوَل في أول القرآن، مع مزيد من بيان حكمة الترتيب:

«ولما كان أمر العقائد هو الأهم المقدم في الدين، وكان شأن أهل الكتاب فيه أعظم من شأن المشركين، قُدِّمت السور المشتملة على محاجتهم بالتفصيل، وناسب أن يجيء بعدها ما فيه محاجة المشركين بالتفصيل، وتلك سورة الأنعام، لم تستوف ذلك سورةٌ مثلُها، فهي متممة لشرح ما في سورة البقرة مما يتعلق بالعقائد، وجاءت سورة الأعراف بعدها متممة لما فيها ومبينة لسنن الله تعالى في الأنبياء المرسلين وشئون أممهم معهم، وهي حجة على المشركين وأهل الكتاب جميعا، ولكن سورة الأنعام فصَّلت الكلام في إبراهيم الذي ينتمي إليه العرب وأهل الكتاب في النسب والدين، وسورة الأعراف فصَّلت الكلام في موسى الذي ينتمي إليه أهل الكتاب ويتبع شريعتَه جميعُ أنبيائهم حتى عيسى المسيح، عليهم الصلاة والسلام. ولما تم بهذه الصورة تفصيل ما أجمل في سورة البقرة من العقائد في الإلهيات والنبوات والبعث، ناسب أن يذكر بعدها ما يتم ما أجمل

---

[١] تفسير المنار ٧/٢٨٨.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

بها من الأحكام ولا سيما أحكام القتال والمنافقين، وكان قد فصَّل بعض التفصيل في سورة النساء، فكانت سورتا الأنفال والتوبة هما المفصِّلتين لذلك وبهما يتم ثلث القرآن»[١].

وقد سقت كلامه هذا بطوله لنفاسته، ولأنه يشرح التناسب بين طائفة من السور متجاورة ومتقاربة في الطول، ولأن فيه اقترابًا من الجامع للسورة أو عمودها، وهو ما حاوله البقاعي من قبل فيما سماه مقصود السورة، ولكن رشيد رضا بحثه بداعي تبيُّن نظام الترتيب، ولم يقصد إليه قصدًا في كل سورة.

وكان في ختام تفسير كل سورة يذكر ما يسميه خلاصة السورة، وقد فاته ذلك في سورة البقرة، فقدَّمه في الطبعة الآخرة، وفاته ذلك في سورة آل عمران، ولم يستدركه، وهذه الخلاصة إجمال لما يمكن من معانيها وأحكامها وما يستفاد منها، ولذلك يطول كلامه عليه، وربما أردفه بما يسميه قواعد أو أصولًا مستفادة من السورة، ولكن انظر إلى ما قاله في خلاصة سورة الأنعام:

«لو سُمِّيت سور القرآن بما يدل على جُلِّ ما تشتمل عليه كل سورة أو على أهمه لسُمِّيت هذه السورة سورة عقائد الإسلام، أو سورة التوحيد، على ما جرى عليه العلماء من التعبير عن علم العقائد بالتوحيد، لأنه أساسها وأعظم أركانها، فهي مفصِّلة لعقيدة التوحيد مع دلائلها، وما تجب معرفته من صفات الله تعالى وآياته، ولرد شبهات الكفار على التوحيد، وما يتبع ذلك من هدم هياكل الشرك وتقويض أركانه...»[٢].

فلم ير أنه لا موجب لـ «لو» الامتناعية هذه في قوله: «لو سُمِّيت سور القرآن بما يدل عليه جُلِّ ما تشتمل عليه كل سورة... لسُمِّيت هذه سورة عقائد الإسلام»، فلم لا يكون لكل سورة معنى أو عمود ترجع إليه معانيها، وتُبنى عليه أقسامها؟ وفي أول تفسير سورة يونس عاد

---

[١] تفسير المنار ٧/٢٨٨-٢٨٩.

[٢] تفسير المنار ٨/٢٧٠.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

إلى تفسير نظام ترتيب، واستشكل الفصل بين السور التي يجمعها جامع من التناسب بسورة أو سور ليست من قبيلها في الظاهر، وفسَّره تفسيرًا يكاد يكون رجوعًا عما أحسن في بيانه فيما سلف من بيان هذا النظام، قال:

«واعلم أن التناسب الذي يوجَد بين السور ليس سببًا في هذا الترتيب الذي بينها، فرُبَّ سورتين بينهما أقوى التناسب في موضوع الآيات ومسائلها يُفصل بينهما تارة ويُجمع بينهما أخرى، فمن الأول الفصل بين سورتي الهُمَزة واللَّهَب وموضوعُهما واحد، والفصل بين السور المبدوءة بالتسبيح بسورة المنافقين. ويقابلها من الوجه الثاني الوصل بين سور الطواسين وسور آل حاميم، وبين سورتي المرسلات والنبأ، وسورتي التكوير والانفطار، وربما يقال: إن التناسب بين أكثر السور المكية أقوى منه بينها وبين السور المدنية. ومن حكمة الفصل بين [السور] القوية التناسب في المعاني، كالمكية التي موضوع أكثرها العقائد والأصول العامة والزواجر الصادعة، والمدنية التي موضوع أكثرها الأحكام العملية – أنه أدنى إلى تنشيط تالي القرآن بالترتيب، وأنأى به عن الملل، وأدعى له إلى التدبر، فهذه الحكمة تشبه حكمة تفريق مقاصد القرآن في السورة الواحدة من عقائد وقواعد وأحكام عملية، وحكم أدبية، وترغيب وترهيب، وبشارات ونُذُر، وأمثال وقصص، والعمدة في كل ذلك التوقيف والاتباع»[(١)].

فكأنما هذا الرأي الأخير الذي انتهى إليه سببه الحيرة في تبيُّن المناسبات، فردَّ ما يبدو في الظاهر أنه مخالف لما افترضه من تفسير للنظام، ردَّه إلى تنشيط القارئ وإزالة الملل، وأولى من ذلك أعادة النظر فيما فسَّر به، والبحث عن صلات وعلاقات بين السور المتجاورة، فقد تكون السورة تكميلًا لمعنى في السابقة لها، ثم بعد سورة أو سور يرجع الترتيب إلى السياق الأول، فيما يشبه الاستطراد أو التفصيل.

---

(١) تفسير المنار ١١/١٤٢.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

• الفراهي ونظام القرآن:

ويذكر الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار سنة ١٩٠٩م -أي بعد نحو عشر سنين من بدء تدوين تفسير المنار- أن المعلم عبد الحميد الفراهي الهندي (١٢٨٠-١٣٤٩هـ = ١٨٦٣-١٩٣٠م) أهدى إلى المجلة وصاحبها رسائل في تفسير القرآن، وأن عنوانها: «نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان»، وفي خبر تحت هذا العنوان يقول الشيخ رشيد:

«أهدانا المعلم عبد الحميد الفَرَاهي، من العلماء في الهند، بضع رسائل في تفسير سور متفرقة من القرآن العزيز، سماها بما ذكر في العنوان، وهي: سورة التحريم والقيامة والشمس والعصر والكافرون والمسد أو تبت، وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من النظر، فإذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعاني من حيث هي هداية إلهية، دون المباحث الفنية العربية، ولكنه لا يفسر كل آيات السورة وكلماتها، ولا يتكلم على ما يفسره بالترتيب، وإنما يتكلم عن المسائل الكلية والمقاصد التي تهدي إليها الآيات كلامًا عامًّا مبسوطًا مفصلًا معدودًا بالأرقام، فمن فصول تفسير سورة التحريم: ١- نظام السورة وموقع آياتها ٢- سنة الله في الاحتساب ٣- عمود السورة هو الاحتساب والتشمير له... وإن للمؤلف لفهمًا ثاقبًا في القرآن، وإن له فيه مذاهب في البيان وطرائق في الاستطراد، منها القريب والبعيد، وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها، والصدور عنها ريان من شواهدها»[(١)].

فأول ما استوقف الشيخ رشيدًا أن ما كتبه الفراهي أسلوب جديد وطريق جديد في التفسير، وأن له فهمًا ثاقبًا في القرآن، وأن طريقته تشارك بعض المشاركة طريقة المنار في القصد إلى هدايات القرآن بغير أن يحجبها الاشتغال بتطبيق العلوم الآلية على الآيات القرآنية، ثم أنه لا يفسر الآيات لفظة لفظة، ولكن يقصد إلى المعاني المجملة، وإلى مباحث تحت عنوانات، منها

---

(١) مجلة المنار ١٣٥/٢/١٢ (٢٩ صفر ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩/٣/٢٢م).

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

نظام السورة وعمودها. على أن أهم ما في عمل الفراهي هو نظرية نظام القرآن، وهو نظام يشمل الجملة فالآية فالسورة فالقرآن كله، بصرف النظر عن التطبيقات على سور قليلة فسَّرها، أو ما سرده من معاني نظم السور، أو عمود كل سورة[١]، فهذا تختلف فيه الأنظار، لكنه نَقَل الفن من البحث عن المناسبات إلى البحث عن النظام، أي من الجزئي إلى الكلي، وما أشار إليه الشاطبي من قبل باسم القضية، وطبقه على سورة المؤمنون، وهو ما سماه البقاعي مقصد السورة، وطبقه على كل سور القرآن، يقابل عند الفراهي عمود السورة، وهو جزء من النظام عنده، لأن النظام يشمل العمود أو الوحدانية والمناسبة والترتيب[٢]. هذا مع أن الفراهي أوسع الكلام النظري في شرح معنى النظام، والحاجة إليه في فهم معاني القرآن وتدبره، وأنه كثيرًا ما يهدي إلى الصواب عند شدة الاختلاف في التفسير. قال:

«اعلم أن القرآن يأتي بجملة من المعاني على نظام مختلف، فيأتي بأمر واحد على أطوار مختلفة، حتى إن العبارة عن أمور متحدة تتبدل والمعنى واحد... فالغرض من اختلاف الأسلوب ليس إلا زيادة فائدة على ما كان، لأجل ما ينبغي في الكلام من الحُسن، والصيانة من التكرار... ثم لكل تأليف دلالة خاصة على حكمة خاصة... أما أنحاء الترتيب فالأمر الواحد ربما يؤتى به كالعمود، وربما يذكر كالتبع، وحينًا يورد مجملًا، وحينًا مفصلًا، ومرة يقدم، ومرة يؤخر، وتارة يفرد، وتارة يقترن... أما العمود للسورة فلا يكون إلا واحدًا، وهذا الواحد ربما يحتوي على أشياء كثيرة... وليس العمود -ما هو- أعظم المقاصد حقيقة، بل هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها، ولكنه أهم الأمور بيانًا في سورةٍ ذكر فيها، ألا ترى آية النور تتلألأ في وسط السورة...

---

(١) دلائل النظام ٩١-٩٨.

(٢) دلائل النظام ٧٦.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

مع أنها ما جاءت إلا تبعًا، وعمود السورة حسن الأدب في أمور ربات البيوت»[١].

فإذا كانت المعاني تتكرر وتورد في السور في معارض شتى، كان لا بد في كل سورة من خصوصية، وهذه الخصوصية هي عمودها، أو الأمر الجامع الذي يربط معانيها، أي مناسبة جمع هذه المعاني في سورة، ومناسبة التعبير عنها بهذه الأساليب المخصوصة، وليس من الضروري أن يكون هو أبرز ما فيها، بل كثيرًا ما يكون مستترًا. وفي كتابه «دلائل النظام» رد على الشبهات المُورَدة على الاعتناء بهذا المسلك في تفسير القرآن، فمنها أن هذا مع صعوبته، وأنه تزل فيه الأقدام، ليس من مهمات الدين، إذ قد جاء الدين للعمل به، لا لاستنباط اللطائف ووجوه البلاغة، قال:

«لا شك أن هذا القائل لم يتصور ما نحن بصدده، فلطائف البلاغة ووجوه الإعجاز ليست مقصودة لذواتها، ولا هي غاية ما تفوز به، بل ليست معرفة نظام الكلام وروابط معاني الآيات -ما هي- طَلِبتَنا، كل ذلك يأتي عرَضًا، إنما المقصود هو التدبر في معنى القرآن الذي سيق إليه بيانه، ومعرفة النظم إنما هي الوسيلة إليه، فهل تظن أنك في غنى عن ذلك؟... وهل ترتضي أن تجعل نفسك ممن يظن أن كتب الفقه قد تكفلت بما أمر الله ونهى فلم تبق لنا حاجة إلى القرآن؟»[٢].

فليس هذا تطلُّبًا للطائف والنكت، ولكنه التدبر المأمور به، المُطْلِع على معاني القرآن الغزيرة التي لا تنفد، ولا يُغني عنها كتابٌ غيره، ولا ظواهر الأحكام التي جرى بها التكليف، فالقرآن فوق ما فيه من أحكام هو موعظة وهدى ونور وأخبار من الغيب تُعلَم بالتدبر والتفرس. بل

---

[١] نظام القرآن ٤١-٤٣.

[٢] دلائل النظام ١٧.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

نبه الفراهي أن نظم القرآن يدل على نظم الديانة كلها[١]، فيعلم به مراتب الأمور والعلاقات بينها، وإذا كانت الحقائق متوافقة ملتئمة، فكلما انكشف لك حق عرَّفك بالمناسبة بينه وبين ما سلف عندك، لأن الحقائق لا تتناقض، فازددت بذلك علمًا، ورُفِعَتْ لك الستور عن المعاني، ومن أجل ذلك يُطلب له كل علم صحيح، وهذا هو الفرق بين التدبر الذي يدل عليه القرآن نفسه، وتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهواجس في التأويل[٢]. ثم هو يفرق بين النظام والتناسب، ذلك أن التناسب جزء من النظام، والتناسب لا يكشف عن المعنى الواحد الذي يجمع الكلام، قال:

> «وطالِبُ التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئًا واحدًا، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإن الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بُعد منها... وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كلامًا واحدًا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بُعد ما، كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السور معترضة»[٣].

وهذه فائدة أخرى غير مجاوزة التناسب التي أشرت إليها من قبل، وهي أن طلب التناسب ربما صرف النظر عن الاعتراض في الآيات والاعتراض في السور، وقد مر مثل لحيرة رشيد رضا في التناسب من أجل أنه لم يتبين معنى الاعتراض في الترتيب الذي يستأنف بعده الاتصال، وهذا يكون بسورة أو سور، ويكون بآية أو جملة آيات.

---

[١] دلائل النظام ٣٤.

[٢] دلائل النظام ٤٣-٤٧.

[٣] دلائل النظام ٧٤-٧٥.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

ويذكر الفراهي أن أساس النظام في السورة هو العمود، وهو الذي يهدي إلى معرفة اتصال بعض الكلام ببعض، لكن استخراج العمود صعب جدًّا، ويحتاج إلى شدة تأمل وترديد نظر، فإذا لاح العمود أضاء السورة كلها، وبيَّن نظامها، وأخذت كل آية موضعها، وترجح به وجه من وجوه الاختلاف في التأويل(١).

وإنما كان استخراج العمود صعبًا في رأي الفراهي لأمور، منها أن القرآن متشابه، فتتشابه سوره في المعاني وتختلف في العمود، أو تتحد في العمود وتختلف في المعاني، وكما أنزل الله الكتاب للعقائد والشرائع والمواعظ أنزله لتعليم الحكمة والنظر، فجعل بعضه بيِّنًا، وبعضه مكنونًا، ليستثير النظر والتأمل، وأيضًا لأن الله جعل القرآن على طرائق الإيجاز وملأه بالعلم والحكمة، فيتحير الناظر في الاصطفاء من معانيه ما يجعله عمودًا للسورة، كمن يبحث في جواهر في غاية الحسن عن واسطة العقد منها(٢).

هذا ما ذكره، ويمكن أن يضم إليه أن القرآن عزيز لا ينال ما فيه من علوم بالجهد اليسير، بل لا بد من إعطائه حقه من التلاوة والتدبر والإقبال حتى يكشف عن مخبآته من وجوه الحكمة المودعة فيه، وأن نظام السورة يمكن أن يتعدد، فيكون للسورة الواحدة عدة من النظم أو النماذج المفسرة، وتصح كلها، إذا ساعدتها الشواهد، وحفت بها القرائن، ولاءمت النظائر، ووافقت المعاني الصحيحة التي دل عليها القرآن من قبل، وهذا المعنى يخالف فيه الفراهي، فهو يرى النظام واحدًا، والتأويل واحدًا، فيرى وجوه النظام ومناسباته يسوغ فيها كثرة التأويل، ولكن المراد واحد(٣)، وهو يرى أن القرآن كله قطعي الدلالة، ولا يقع الاختلاف إلا من قصور في العلم(٤)، وأن التأويل الصحيح المراد واحد، وكذلك كان عند الصحابة، ولذلك قل منهم السؤال

---

(١) دلائل النظام ٧٧.

(٢) دلائل النظام ٧٨-٧٩.

(٣) دلائل النظام ٧٩.

(٤) نظام القرآن ٣٩.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

والتفسير[١]، وهذا غلو منه، وتحجير لواسع، فالذي يلائم الخلود وغزارة المعاني هو جواز تعدد الصواب في التفسير، وقد بينه العلامة ابن عاشور في المقدمة التاسعة من تفسيره، واحتج له بحجج قوية[٢]، وهو نحو تتعدد القراءات في اللفظ والمعنى، وهي كلها من عند الله، مع اختلافها، ويكون الغرض تكثير المعاني، ومن الواضح أن شرط ذلك قوة الدلائل، إذ لا موازنة بين قوي وضعيف، أو بين صحيح وسقيم.

• **طريقة ابن عاشور:**

ولم ير الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (١٢٩٦-١٣٩٣هـ = ١٨٨٩-١٩٧٣م) أن بيان المناسبات بين السور حق على المفسر[٣]، ذلك أنه يرى ترتيب السور اجتهاد من الصحابة[٤]، أو لأن كل سورة عنده كلام مستقل، وقال في سورة القدر: «ومن تسديد ترتيب المصحف أن وضعت سورة القدر عقب سورة العلق مع أنها أقل عدد آيات من سورة البينة وسور بعدها، كأنه إيماء إلى أن الضمير في **(أنزلناه)** يعود إلى القرآن الذي ابتدئ نزوله بسورة العلق»[٥]، فسمى ذلك تسديدًا، أي توفيقًا. وقال في سورة المائدة: «وجعلت هذه السورة في المصحف قبل سورة الأنعام مع أن سورة الأنعام أكثر منها عدد آيات، لعل ذلك لمراعاة اشتمال هذه السورة على أغراض تشبه ما اشتملت عليه سورة النساء عونًا على تبيين إحداهما للأخرى في تلك الأغراض»، وهذا قول عام في ظاهره يحتمل الوجهين، لكنه محمول على رأيه المذكور في أن الترتيب اجتهاد وتوفيق.

على أنه التزم ببيان المناسبات بين الآي، ووصفه بأنه منزع جليل عُني به الفخر الرازي في تفسيره، وهو من مراجعه الأولية، وأشار إلى تفسير البقاعي، وقال: «إلا أنهما لم يأتيا في كثير

---

(١) التكميل في أصول التأويل ١٣.

(٢) التحرير والتنوير ١/٩٣-١٠٠.

(٣) التحرير والتنوير ١/٨.

(٤) التحرير والتنوير ١/٨٨-٨٩.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/٤٥٦.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

من الآي بما فيه بمقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع»[١]، وعني أيضًا بما سماه أغراض السورة، قال: «لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورًا على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله»، إلا أنه لم يأت فيه بمقنع، إذ كان يسردها على ما يبدو من ظواهرها، ولا يبحث فيما يجمعها، فمن أين تعرف روائع جماله بغير تبين انتظام معاني سوره؟

غير أنه في مواضع قليلة حام حول شيء من ذلك، لأن السور في نفسها تلجئ إلى ذلك، ولو أعطاها المتأمل حقها من النظر لفُتح له باب عظيم من التدبر، ففي سورة البقرة قال: «ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يُثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم»[٢]، وقال في سورة النساء: «وقد اشتملت على أغراض وأحكام كثيرة أكثرها تشريع معاملات الأقرباء وحقوقهم، فكانت فاتحتها مناسبة لذلك بالتذكير بنعمة خلق الله، وأنهم محقوقون بأن يشكروا ربهم على ذلك، وأن يراعوا حقوق النوع الذي خلقوا منه، بأن يصلوا أرحامهم القريبة والبعيدة»[٣]، وقال في سورة المائدة: «وقد احتوت هذه السورة على تشريعات كثيرة تنبئ بأنها أنزلت لاستكمال شرائع الإسلام، ولذلك افتتحت بالوصاية بالوفاء بالعقود، أي بما عاقدوا الله عليه حين دخولهم في الإسلام من التزام ما يؤمرون به»[٤].

• شلتوت والتفسير:

كانت طريقة الشيخ محمود شلتوت (١٣١٠-١٣٨٣هـ = ١٨٩٣-١٩٦٣م) طورًا آخر لطريقة تفسير المنار، ذلك أن المنار جمع بين التفسير المفصَّل لألفاظ القرآن الكريم لفظة لفظة، والتتبع لأبواب المعاني والاستطراد في الكلام عليها باستحضار نظائر الآيات المفسرة، وهو ما

(١) التحرير والتنوير ١/٨.
(٢) التحرير والتنوير ١/٢٠٣.
(٣) التحرير والتنوير ٤/٢١٣.
(٤) التحرير والتنوير ٦/٧٢.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

سمي التفسير الموضوعي من بعد، والشيخ شلتوت يقتصر على التفسير الموضوعي، ولا يقف عند ألفاظ الآيات، وزاد عليها بمزيد وقوف عند معالم السورة، وما فيها من معان وخصائص، فيجمع آيات المعنى الواحد في السورة، وآيات المعنى الواحد في القرآن في كثير من الأبواب، وقد أشار إلى الناحية الأولى في أثناء كلامه على سورة البقرة، قال:

«وقد سلكنا بهذا الصنيع سبيلًا غير التي ألفها الناس في التفسير، لنضع بين يدي القارئ الموضوعات التي عرضت لها السورة فيما قبل هذه الآية، والموضوعات التي عرضت لها فيما بعدها، في سلك واحد يجمع بين حبات كل جانب، ويعطي للناظر إليه صورة كاملة لجمع ما احتوت عليه تلك السورة الكريمة، وتعينه على الرجوع بكل مسألة فيها إلى نوعها وغرضها التي ترتبط فيها مع زميلاتها»[١].

وهو بذلك حريص على المعنى أو الباب في السورة يضم فيه آياتها بعضها إلى بعض، ومن أجل ذلك تبدو لديه معاني السورة أقل تشعبًا مما تجده عند ابن عاشور فيما سماه أغراض السورة، لكنه أدنى من طريقة الفراهي في البحث عن المعنى الواحد لها، فيما سماه: عمود السورة، وهو ينحو منحى رشيد رضا في تتبع هدايات القرآن في المعاني والأبواب، فيجمع النظائر القرآنية في المعنى الواحد في سياق واحد، كما جمع هنا في هذا الموضع عند كلامه على آية: **(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب)** آيات البر في القرآن وشرح معناه وأنواعه[٢]، وكما في حديثه عن الربا في سورة آل عمران[٣]، وعن أسباب الحرب في سورة الأنفال[٤]، غير أن الموضوعات القرآنية يكون حديثه فيها أقصر من هذا في أغلب المواضع. وهو كان من أوائل من اقترح أن تكون الموضوعات القرآنية طريقة في التفسير، فنشر كتاب: «القرآن والمرأة» في

---

(١) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٦٦.

(٢) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٦٦-٧٣.

(٣) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ١١٤-١٢٤.

(٤) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٤٠٤-٤١٢.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

أوساط عقد الأربعينيات الميلادية، وكتاب «القرآن والقتال»، وقال في هذا المؤرخة مقدمته بشوال سنة ١٣٧٠هـ الموافق تموز سنة ١٩٥١م:

«لتفسير القرآن طريقتان: إحداهما أن يسير المفسر مع آيات الذكر الحكيم وسوره على الترتيب القرآني المعروف، فيفسر المفردات، ويربط بين الآيات، ويبين المعاني التي تدل عليها... أما الطريقة الثانية فهي أن يعمد المفسر أولًا إلى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد ثم يضعها أمامه كمواد يحللها ويفقه معانيها، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض، فيتجلى له الحكم ويتبين المرمى الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع، وبذلك يضع كل شيء في موضعه»[١].

وفضل هذه الطريقة الآخرة، وضرب لها الأمثلة، ورأى أنها هي ما يجنب التفسير أن يصطبغ بصبغة تخصص المفسر. وفي تفسير السور جعل لسورة البقرة غرضين: دعوة بني إسرائيل، والتشريع لجماعة المسلمين الناشئة[٢]، وجعل لسورة آل عمران مقصدين: شأن الألوهية، وما يصرف الناس عن الحق، ثم تحذير المؤمنين من باطل المخالفين[٣]، ولسورة النساء جانبين: الاستقرار الداخلي في شأن الأسرة، والاستقرار الخارجي بمقاومة الشر، ولسورة المائدة قاعدتين: الوفاء بالعقود، والنعي على أهل الكتاب نقضهم المواثيق[٤]، ويلاحِظ أنها ليس فيها مما في السور المدنية من ذكر المشركين أو القتال[٥]، وعند سورة الأنعام –وهي مكية– يعود إلى تلخيص مضامين الأربع السور المدنيات السابقات، فالفاتحة أشارت إلى جميع مقاصد القرآن، وأربع السور يجمعها مقصد واحد، هو تنظيم شئون المسلمين بالتشريع، وإرشادهم إلى مجادلة

---

[١] القرآن والقتال ٥-٧.

[٢] تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٤٤-٤٥.

[٣] تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٧٧-٧٨ و٨٥.

[٤] تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٢٠٧.

[٥] تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٢١٨.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

المجاورين لهم من أهل الكتاب[١]، وسورة الأنعام في المحاجة في معاني الدعوة الأولى، وهي التوحيد والبعث والجزاء والنبوات[٢]، ثم يوازن بين هذه السورة والسور الأخرى المبدوءة بالحمد، وهن الفاتحة والكهف وسبأ وفاطر، ثم يوازن بين سورتي الأنعام والأعراف، وهما مكيتان متجاورتان، وأطول السور المكية[٣]، وخلاصته أن سورة الأنعام فصلت في رد شبه خصوم الدعوة، وسورة الأعراف فصلت الإنذار بما أعد للمكذبين في الآخرة، وبجزاء السابقين من عذاب الدنيا[٤]، ثم يقول كلمة في ترتيب المصحف، ويذكر أنه على غير ترتيب النزول، لأنه كان بعد أن استقرت الجماعة، فجعل ترتيبه على ما يلائم أنه كتاب أمة ومرجعها، ولذلك قدمت فيه السور المدنية التي فيها جل الأحكام[٥]، وهو يرى هذا الترتيب توقيفًا لا اجتهاد فيه[٦]، ثم يذكر أن الأنفال وبراءة تبينان شئونًا حربية موعظةً وشرعةً[٧].

وكتاب الشيخ شلتوت هذا في هذه السور التسع، وهذه الأجزاء العشرة، نشره منجَّمًا في مجلة رسالة الإسلام بين سنتي ١٩٤٩ و١٩٦٣، ثم جُمع في هذا الكتاب[٨]، وبعد وفاته نُشر سنة ١٩٦٤م تفسير سورة هود على قسمين في المجلة[٩]، ولم يضم إلى الكتاب، ولا أدري فسر سورة

---

(١) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٢٨٢-٢٨٣.

(٣) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٢٨٨.

(٤) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٢٩٢.

(٥) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٣٤٨

(٦) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٤٦٥.

(٧) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة ٣٩٩.

(٨) وكان الشيخ يوسف القرضاوي وزميله الشيخ أحمد العسال كُلفا أن يجمعا أعمال الشيخ محمود شلتوت من المجلات في كتب، قال الشيخ القرضاوي: «وكنا نراجع الشيخ في بعض الفقرات التي تكون لنا عليها ملاحظة، فيُقرُّنا عليها، وأحيانًا يوكلني بإتمام ما أراه ناقصًا، وأذكر أنا عرضنا عليه أن بعض الآيات في سورة الأنفال لم تأخذ حقها من الشرح رغم أهميتها، فقال لي: سد هذه الفجوة بما تراه، ذلك تفويض مطلق. وكان الأخ أحمد العسال كلما مر على هذه الفقرة ونحوها يقول: هذه قرضاوية، فأقول له: قد أصبحت بإقرار الشيخ شلتوتية!». ابن القرية والكُتَّاب ٢٨٣/١.

(٩) مجلة رسالة الإسلام العدد ٥٦/٥٥، ص١٧٩، والعدد ٥٧، ص٥، سنة ١٩٦٤م.

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

يونس أم لا. ونُشر له كتاب آخر في التفسير بعنوان: «إلى القرآن الكريم»، وهو ما كان يلقيه في الإذاعة، وهو على طريقة الأرباع، فيعلق على ربع الحزب المراد إذاعته، وفيه تعليق على أرباع من ٢٧ سورة، من السور المفسرة في كتاب العشرة الأجزاء، ومن غيرها.

• كتاب للصعيدي:

وللشيخ عبد المتعال الصعيدي (١٣١١-١٣٨٦هـ = ١٨٩٤-١٩٦٦م) كتاب سماه: «النظم الفني في القرآن»، ذكر في مقدمته أن بعض المستشرقين عاب القرآن بأنه لا ترتيب فيه، وأن محمد فريد وجدي رد على ذلك ردًّا فيه تسليم بالدعوى، إذ أجاب بأنه ليس كتابًا بشريًّا فيرتب ترتيب كتب البشر[١]، والأمر عنده أن في القرآن ترتيبًا ونظمًا وضعت عليه السور، قال:

> «ولم يوجد من المفسرين من يعنى بهذا الأمر على الوجه اللائق به، وغاية ما يفعله بعضهم أن يعنى بإظهار المناسبة بين آية وآية، فلا يأتي من ذلك بالغرض المطلوب، ولا ينظر في كل سورة نظرة عامة يعرف بها الغرض المقصود منها، ثم يقسمها إلى أقسام يدخل كل قسم منها تحت ذلك الغرض العام ولا يخرج عنه إلى أغراض أخرى لا تدخل فيه، ولهذا وضعت كتابي: النظم الفني في القرآن في هذا الموضوع الخطير»[٢].

فجعل غرض سورة البقرة الرد على أحبار اليهود ومن تبعهم من المنافقين، ثم بيان ما أنزل على المسلمين من الأحكام في عباداتهم ومعاملاتهم[٣]، ثم قسمها إلى طوائف من الآيات يجعل لكل طائفة عنوانًا، ويعلق عليها بذكر معناها المجمل، وجعل سورة آل عمران في مجادلة النصارى بمناسبة مجيء وفد نجران، ثم تثبيت المؤمنين وتحذيرهم من مقالاتهم، وتثبيتهم بعد غزوة أحد[٤]،

---

[١] مقدمة صفوة العرفان في تفسير القرآن لمحمد فريد وجدي ١٢٥-١٢٦.
[٢] النظم الفني في القرآن ٤.
[٣] النظم الفني في القرآن ٤٤.
[٤] النظم الفني في القرآن ٦٣.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

وجعل سورة النساء في بيان الأحكام التي شرعت بعد نزول سورة البقرة، ثم بيان حال أهل الكتاب والمنافقين في الزمن الذي نزلت فيه، وذكر أنها جاءت بعد سورتي البقرة وآل عمران لأنها تشبههما في الطول وفي بيان الأحكام العملية وحال أهل الكتاب والمنافقين[١]، وذكر نحو هذا في مناسبة مجيء سورة المائدة بعد سورة النساء[٢]، وذكر أن سورة الأنعام جاءت بعد سورة المائدة من أجل الطول ومن أجل ما فيها من ذكر الحلال والحرام[٣]، وجعل سورة الأعراف في الاعتبار بقصص السابقين، بعد الاستدلال في سورة الأنعام[٤]، والأنفال بعدها لأن فيها تحقيق ما أنذر به في المشركون فيها[٥].

وهكذا تجد في كتاب الشيخ الصعيدي محاولة البحث عن مقصد السورة أو مقاصدها، وعلاقتها بما جاورها، ولكن الجهد الذي يبذله في ذلك قليل، وهو أقل من جهد الشيخ شلتوت، فيأخذ بظواهر الأمور، ويرى آيات السورة مقسمة أقسامًا لها بدء وانتهاء، ولا يرى أنها يجوز أن تتداخل أو تمتزج، فضلًا أن يبحث عن العمود الواحد الذي يجمعها. على أنه تجمعه بصنيع الشيخ شلتوت التأمل الموضوعي في السور، ويزيد عليه أنه أتم البحث في سور القرآن كلها بحديث موجز، على أن الشيخ شلتوتًا أطال في بيان الأحكام والمواعظ والهدايات، وأطال أيضًا في اجتلاب النظائر والآيات التي يجمعها موضوع واحد، فاقتصر الصعيدي على بحث السورة، وجمع شلتوت بين موضوعات السورة وموضوعات القرآن. وبهذا كان عنوان الشيخ الصعيدي لكتابه واسعًا بالقياس إلى مضمونه.

---

(١) النظم الفني في القرآن ٧٦-٧٧.

(٢) النظم الفني في القرآن ٩٠.

(٣) النظم الفني في القرآن ٩٩.

(٤) النظم الفني في القرآن ١١٠.

(٥) النظم الفني في القرآن ١٢٢.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

ثم ختم الكتاب بأن عمله مقدمة لظهور ما سماه: المصحف المبوَّب، ويعني أن توضح في حاشية المصحف أقسام كل سورة بحسب ما تقسم إليه آياتها من طوائف لكل موضوع من موضوعاتها، كما أداه إليه اجتهاده، قال:

«ليعرف القارئ الغرض المقصود من كل سورة من سور القرآن، ويعرف حدود أقسامها في ذلك الغرض، فتنقسم السور بهذا إلى أقسام مرتبة متميزة، وتبوب كما تبوب الكتب الوضعية، وتظهر للناس متسقة المعاني، منتظمة المباني»[١].

وهذا تصور للمعاني القرآنية فيه قصور، ذلك أنها لا تتمايز في حدود واضحة دائمًا، وكثيرًا ما تمتزج، ويرجع السياق إلى المعنى مرة بعد مرة بما يتصل به على أنحاء تظهر أو تستتر. على أنه قد ظهرت مصاحف في العهود الأخيرة فيها تمييز بالألوان يقسم السورة إلى مقاطع، ونحوه يوجد في مصاحف إليكترونية تلون الأقسام بحسب تقسيم مقترح. وهو على كل حال اجتهاد كاجتهاد تقييد الوقف بحسب الإعراب والتفسير، وتختلف فيه الأنظار.

• النبأ الدِّرَازي:

ولكتاب الشيخ الصعيدي المذكور إبرازة أخصر سنة ١٩٤٣م سبقت الأخرى، بعنوان: «الأقوال الحسان، في حسن نظم القرآن»، فإذا كان الشيخ شلتوت بدأ ينشر فصوله في التفسير سنة ١٩٤٩م، يكون الشيخ محمد عبد الله دراز (١٣١٢-١٣٧٧هـ = ١٨٩٤-١٩٥٨م) الأزهري والمعاصر للشيخين شلتوت والصعيدي، أقدم الثلاثة تأليفًا في التفسير الموضوعي، إذ لكتابه «النبأ العظيم» إبرازتان، إحداهما سنة ١٩٣٣م[٢]، والأخرى سنة ١٩٥٧م، وكان قبل ذلك محاضرات يلقيها على طلابه في الأزهر بين سنتي ١٩٢٨ و١٩٣٣م، على تفاوت بين الشيوخ

---

[١] النظم الفني في القرآن ٣٧٧.

[٢] كما أفاده في مقدمتَي الكتاب ٧ و١٠، وانظر كتابه: «مدخل إلى القرآن الكريم» ١١٧، فقد ألف هذا سنة ١٩٤٧م جزءًا من رسالة الدكتوراه في فرنسا، وأشار إلى أن كتاب «النبأ العظيم» مدون غير منشور إلا ما أملاه منه على الطلاب.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

الثلاثة، فكان اهتمام الشيخ دراز بالإعجاز والنظام، واهتمام الشيخ شلتوت بالهدايات والأحكام، وكان الشيخ الصعيدي آخرهم وفاة، غير أني رتبتهم هنا بحسب المولد على قرب ما بينهم.

وكتاب «النبأ العظيم» قسمان: قسم في البحث العقلي في مصدر القرآن بطريق الاستدلال بالسيرة النبوية وأحوال التلقي، والقسم الآخر في الإعجاز القرآني، وجعل الإعجاز اللغوي أحد وجوه الإعجاز[١]، وكلامه على الإعجاز اللغوي قسمان: قسم نظري، رد في أوله الشبه الواردة على هذا النوع، ثم ثنى بالكلام على التأليف الصوتي للقرآن في إيقاعه وتنسيقه، وسمى ذلك «القشرة السطحية للقرآن»، ثم انتقل إلى ما سماه «لب البيان القرآني»، وذكر أنه واقع في القطعة منه، وفي السورة، وفي تأليف السور، وفي القرآن جملة، ثم انتقل إلى خصائص الأسلوب القرآني، وردها إلى قاعدة واحدة، هي: «اجتماع نهايات الفضائل البيانية المتباعدة»، وفرَّعها إلى أربعة فروع[٢]، ثم عمد إلى التطبيق على آية اختارها من غير ما يشيع التمثيل به في الإعجاز[٣]، ثم استطرد إلى أمثلة يبين بها أن كل لفظ مراد، لا يحتمل السياق الاستغناء عنه، كما أن كل حذف مراد، لا يحتمل السياق اجتلابه.

ثم كان شطر الكلام على الإعجاز في بحث سورة البقرة لطولها، وجعلها مثالًا لإعجاز السورة، فيما سماه خصيصة: «الوحدة في الكثرة»، فإذا تبين ذلك في أطول سورة كان فيما هو أقصر منها أبين. وقدم لبحث سورة البقرة ببيان الإعجاز في تأليف السور بعد أن نزلت نجومًا مفرقة، ذلك أنها ائتلفت بلا اختلاف أو تفاوت، سبيكةً واحدة كأنها نزلت كذلك من أول الأمر،

---

(١) جعل الإعجاز ثلاثة أنواع: اللغوي، والعلمي، والاجتماعي، ووعد أن الكلام سيكون على الثلاثة، ولكنه شغل بالأول عن الآخرين.

(٢) هي: ١- القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى ٢-وخطاب العامة مع خطاب الخاصة ٣- والإقناع مع الإمتاع ٤- والبيان مع الإجمال.

(٣) هي قوله تعالى في سورة البقرة: **﴿وإذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه﴾** الآية، وقد أجاد شرحها وبيان نظمها أيما إجادة. النبأ العظيم ١١٩-١٢٧.

وما كان في وسع البشر أن يعلموا الغيوب وما يكون من الوقائع في المستقبل، فاختلاف المعنى واختلاف الزمان لم يؤثرا في التحام نظم السورة، وأيضًا لا يمكن تأليف المتفرق حتى تُعرف الصورة المراد تركيبه عليها، وحتى تعرف الأجزاء التي يتركب منها، وكل هذا كان محجوبًا عن الناس، وكلما نزل نجم أمر النبي ﷺ بجعله في موضعه من سورته[١].

ورأيه في وحدة السورة أنها تقوم على التناسق والائتلاف والانتظام[٢]، قال:

«السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن ... لا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء جزء منه... إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها، بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها، على وجه يكون معوانًا له على السير في تلك التفاصيل عن بينة، فقديمًا قال الأئمة: إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد... وبها تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وقعت عليه السورة في جملتها»[٣].

والكلام الذي نقله عمن وصفهم بالأئمة هو كلام الشاطبي في «الموافقات» الذي نقلتُه من قبل، وقد نَشر كتاب الموافقات وشرَحه والدُه الشيخ عبد الله دراز (١٢٩١-١٣٥٠هـ = ١٨٧٤-١٩٣٢م)، وصاحب النبأ ينكر كما ترى النظر الجزئي في المناسبات، ويرى أن للسور

---

(١) أطال في هذا المعنى وقلبه على كل وجوهه. النبأ العظيم. ١٤٥-١٥٧.

(٢) النبأ العظيم ١٤٢.

(٣) النبأ العظيم ١٥٧-١٥٨. وفي كتابه: مدخل إلى القرآن الكريم ١٢٢ كأنما فرَّق بين طريقتين سائغتين في بحث نظام السورة: التخطيط الكامل، والمناسبات الجزئية بين الآيات، قال: «أما الذين لا يهتمون بالكشف عن هذا التخطيط في السور القرآنية فإنهم يستطيعون أن يتأملوا تخطيطًا آخر ذا طابع أسلوبي، وبمقتضاه يمكن ملاحظة أن الأجزاء التي تتجاور مجهزة مقدمًا بطريقة معينة بحيث يتجاوز بعضها مع بعض بدون تصادم أو ثغرات».

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

نظامًا يجمع أجزاءها ومعانيها، ولا ينكشف إلا بدراستها كاملة، لكنه لا يجعل لها عمودًا واحدًا ترجع إليه كل معانيها[١]، كما أشار إلى ذلك الشاطبي لما درس سورة المؤمنون، وأشبعه شرحًا الفراهي، فدراز يرى الوحدة وحدة النظام والنسق، لا وحدة الموضوع الواحد، ولذلك جعل نظام سورة البقرة يقوم على مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة، فالمقدمة في التعريف بشأن القرآن، والمقصد الأول في دعوة الناس إلى الإسلام، والثاني في دعوة أهل الكتاب، والثالث في عرض شرائع الإسلام، والرابع في ذكر ما يبعث على ملازمة تلك الشرائع، والخاتمة في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة، وهو يرى هذه المقاصد مترتبة على هذا النحو، ولم يشر إلى أنها يجوز أن تتداخل وتمتزج. ومضى يشرح هذه الأجزاء، وكيف ارتبط بعضها ببعض، وكيف كان الانتقال من جزء إلى جزء ومن معنى إلى معنى، فهو يرى النظام في السورة هو العناصر القليلة المترتبة مع التأليف بينها بالتناسب وحسن الانتقال. وقد أجاد ما شاء في شرح هذا النظام، وفي كثير من المعاني الجزئية للآيات[٢]. وقد سلك هذا المسلك في تفسيره سورًا أخرى، نشر في بعض المجلات أو قرأه للإذاعة، وإن كان كلامه على سورة البقرة أنفذ بصرًا، وأكثر تجويدًا، ولا يضارعه إلا كلامه على سورة الفاتحة[٣].

---

[١] وإن كان قد أشار نظريًّا في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم ١٢٢ إلى ما سماه: الفكرة الرئيسية أو النواة المركزية، ولكنه لم يُعْنَ به في التطبيق.

[٢] كما في تفسيره للأمثال في أول السورة، بدءًا من قوله: **(أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى)** إلى قوله: **(إن الله على كل شيء قدير)**. النبأ العظيم ١٦٨-١٧١.

[٣] مجلة المجلة عدد ٧ بتاريخ ١٩٥٧/٧/١م، ص ١٠-١٥. وجُمِعَتْ قطع من هذا التفسير المنشور مكتوبًا أو مقروءًا للإذاعة في مجموعات، منها: «نخبة الأزهار وروضة الأفكار»، جمعه الشيخ عبد الله الإنصاري، سنة ١٩٧٩م، وفيه من التفسير تفسير سورة الفاتحة، ومنها: «حصاد قلم» جمعه الشيخ أحمد فضلية سنة ٢٠٠٣م، وفيه من تفاسير السور: الفاتحة ويس والمؤمن والملك والقلم والنبأ والتكوير، ومنها: «من روائع التفسير» جمعه الشيخ فضلية أيضًا، ونشر سنة ٢٠١٧م بعد وفاة الجامع سنة ٢٠١٣م، وفيه من تفاسير السور: الفاتحة والمائدة والأنفال والحجر والنحل ويس والمؤمن والقمر والواقعة والملك والقلم والنبأ والتكوير. وفي كل ذلك تكرار كما ترى، بل في مجموع من «روائع التفسير» تفسير سورة البقرة الذي هو من كتاب «النبأ العظيم».

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

• تصوير سيد قطب:

بدأ الأستاذ سيد قطب (١٣٢٤-١٣٦٨هـ = ١٩٠٦-١٩٦٦م) كتابته في بلاغة القرآن بمقالة في مجلة المقتطف سنة ١٩٣٩م بعنوان: «التصوير الفني في القرآن الكريم»، ويرى فيها أن «الدراسة الفنية الكاملة التي تتناول هذا الكتاب الكريم كسجل لأبلغ أسلوب عربي، وتكشف عما حوى من الجمال التصويري، وتشرح خصائصه الفنية، ولوازم أسلوبه، وحيوية تعبيره، وروحانية اتجاهه، هذه الدراسة الواجبة لم توجد حتى اليوم، ومن الواجب أن توجد في القريب»[١]، وضرب الأمثلة لما لفت نظره من خصيصة التصوير في القرآن، ثم قال: «تلك عجالة في هذا البحث البكر الخصيب، ولعلها تكون مقدمة لبحث شامل كبير، إن شاء الله»[٢]، ثم نشر كتابه: «التصوير الفني في القرآن الكريم» سنة ١٩٤٥م، وبعدها بعامين نشر كتابه: «مشاهد القيامة في القرآن» سنة ١٩٤٧م، على أنه ضِمْن المكتبة القرآنية التي ينوي إصدارها، وهي توسعة لفصول كتابه: «التصوير الفني»، وفي كتاب المشاهد يعرض الآيات بحسب سورها، وبحسب ترتيب النزول المظنون لها، قال:

> «ورَتَّبت هذه السور حسب نزولها، وذلك عمل تقريبي لا جزم فيه، ولكنه هو الطريق الوحيد المتاح لنا في القرن الرابع عشر من الهجرة، وما من شك أن هناك نقطة ضعيفة في هذا الترتيب، حتى على فرض أن هناك يقينًا في ترتيب السور على نحو معين بحسب تاريخ النزول، فالمعروف أن هذه السور لم تنزل كاملة، إنما هي نزلت آيات متفرقات بحسب المناسبات، وليس لدينا أي سجل كامل لأسباب النزول وتاريخه المضبوط، وحتى الآيات التي نعرف أسباب نزولها تختلف فيها الآراء وتتعدد الأقوال، ولا مجال فيها لغير الظن والترجيح، ولو كان بين أيدينا ذلك السجل الدقيق الذي لا يقوَّم بثمن لهيَّأ لنا فرصة لا تقدَّر لتتبع

---

(١) مجلة المقتطف عدد ٢ (١/٢/١٩٣٩م) ص ٢٠٦.

(٢) مجلة المقتطف عدد ٣ (١/٣/١٩٣٩م) ص ٣١٨.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

مراحل الدعوة الإسلامية وطرائقها في كل مرحلة، ولكشف لنا عن العوامل النفسية والعقلية فيها فوق العوامل التاريخية والمحلية، ولكن هذا كله مع الأسف الشديد لا سبيل إليه الآن بغير الحدس والتخمين»[١].

ولِمَ كل هذا العناء؟ وغرض الباحث هو الخصائص التصويرية للنص بغض النظر عن المعنى الديني أو التاريخي، كما ألمح إلى ذلك مرارًا في التصوير وغيره[٢]؟ فهو يجد إشكالين في ترتيب النزول، غياب ترتيب مقطوع به لنزول السور، وغياب ترتيب مقطوع به لنزول الآي. وكل ذلك لا سبيل إليه، وكأنما أراد الله -تعالى- أن يجعل القرآن بين أيدينا على هذا الترتيب للسور والآي، ففيه البلاغ، وفيه الإعجاز، وفيه كل خصائص القرآن الكريم، في سورة من سوره، أو قطعة من آيه. ثم يستشعر أن اقتطاع آيات من سياقها يُحْوج إلى معرفة موقعها في آياتها، أي إلى موقعها في سورتها، يقول: «وأنا أعلم أن هذه المشاهد لا تبدو في جمالها الكامل إلا إذا استعرضت مع السياق الذي وردت فيه، وهذا يقتضي تناول القرآن كله، وهو غير مستطاع هنا، ولكني حاولت بقدر الإمكان أن أربط معظم المشاهد بالسياق الذي وردت فيه، فحققت ما أريد بعض التحقيق»[٣]. وفي سنة ١٩٤٦م ينشر في الرسالة فصلًا في تفسير سورة الحاقة عنوانه: «درس في التفسير على طريقة التصوير»[٤]، ويقول: «سورة الحاقة من السور المكية، وهي في جملتها تتولى بسط قضيتين غيبيتين من قضايا العقيدة الإسلامية، بينهما ارتباط وثيق، أولاهما: قضية البعث والقيامة، والثانية قضية الوحي وأمانة التبليغ»، وهذا غير ما في الظلال، إذ يقول هناك:

«والسورة بجملتها تلقي في الحس بكل قوة وعمق إحساسًا واحدًا بمعنى واحد، أن هذا الأمر، أمر الدين والعقيدة جد خالص حازم جازم، جد كله لا هزل

---

[١] مشاهد القيامة في القرآن ٩.

[٢] التصوير الفني في القرآن ٩، ومشاهد القيامة في القرآن ١٠.

[٣] مشاهد القيامة في القرآن ٩-١٠.

[٤] مجلة الرسالة عدد ٦٥٣ (١٩٤٦/١/٧م) ص ١٤-١٧.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

فيه، ولا مجال فيه للهزل، جد في الدنيا وجد في الآخرة، وجد في ميزان الله وحسابه، جد لا يحتمل التلفت عنه هنا أو هناك كثيرًا ولا قليلًا، وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم، وأخذه الحاسم، ولو كان الذي يتلفت عنه الرسول، فالأمر أكبر من الرسول، وأكبر من البشر، إنه الحق، الحق اليقين، من رب العالمين»(١).

وكنت لحظتُ أنه في كتاب «مشاهد القيامة» يرى عرض الآيات مقتطعة من سياقها لا يفي بتبين ما فيها من تصوير واتساقه مع سياقه، ولا شك أن هذا يجري على ما في «التصوير الفني» أيضًا، وكأنما كان هذا يدفعه مع تعلقه بالقرآن وتطوره الفكري والنفسي إلى تفسير القرآن كاملًا، فإذا كانت نظرية التصوير يصلح جل ما في القرآن الكريم شاهدًا عليها، وإذا كانت الشواهد لا تَظهر بلاغتها إلا في سياقاتها، فلا يفي بذلك كله إلا كتابة تفسير كامل، وقد انتهز فرصة صدور مجلة «المسلمون» وبدأ يكتب التفسير الذي سماه: «في ظلال القرآن»، كان ذلك في أوائل سنة ١٩٥٢م، وكان لهذا الكتاب إبرازتان: واحدة طبعت أجزاءً بحسب أجزاء ثلاثين جزءًا بين عامي ١٩٥٢ و١٩٥٩م طبعتين، وكأن الطبعة الأولى لم تتم، وما تم هو الطبعة الثانية، وإبرازة أخرى أوسع بدأ نشرها سنة ١٩٥٩م ولم تكتمل طباعتها إلا سنة ١٩٧٢م أي بعد وفاته سنة ١٩٦٥م، قال في مقدمة الإبرازة الأولى والطبعة الأولى:

«... فلما أن صدرت المسلمون وكان عليَّ أن أشترك في تحريرها بمقال شهري، وود صاحبها الصديق أن لو كان هذا المقال في موضوع مسلسل، أو تحت عنوان دائم، قفز إلى ذهني هذا العنوان... حاولت أن أعبر عما خالج نفسي من إحساس بالجمال الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز، ومن شعور بالتناسق والتصوير، ولقد كانت هذه إحدى أماني منذ أن فرغت من كتاب التصوير الفني في القرآن، قبل ثمانية أعوام، وسجلت ما بدا لي واضحًا يومذاك،

(١) في ظلال القرآن ٣٦٧٤.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

أن التصوير هو القاعدة الواضحة في التعبير القرآني الجميل، وكنت قد أدرت الكتاب كله على هذا المحور لشرح هذه القاعدة، والتمثيل لها من القرآن، كانت إحدى أمانيَّ أن يوفقني الله إلى عرض القرآن في هذا الضوء، ثم كمنت هذه الرغبة أو توارت، حتى ظهرت مرة أخرى في هذه الظلال. وقد سرت في هذا العمل الجديد على أساس عرض كل مجموعة من الآيات التي يربط بينها سبب خاص، ويظللها ظل خاص، في صورة درس قرآني، وقد تكون هذه الآيات ربعًا من القرآن أو أقل أو أكثر، لم أتقيد بهذا على وجه الدقة، إنما تقيدت أن يكون كل جزء من أجزاء القرآن الثلاثين في جزء من هذه السلسلة التي ستصدر تباعًا كل شهرين بعون الله»[١].

فمن الواضح أن الإبرازة الأولى من هذا الكتاب هي المكتبة القرآنية التي كان يعد بها من قبل في التصوير والمشاهد، وذلك بعرض الآي في سياقها، وتتبع آي القرآن كلها، مع ما يتضمن ذلك من خواطر وصفها بأنها «روحية أو اجتماعية أو إنسانية»، وأن الآي سيقت بحسب تقسيم الدروس المعنوية من السور، وأنها كانت تنشر أجزاء بحسب أجزاء الثلاثين، فالسورة إذًا تقسمها الدروس، وتقسمها الأجزاء، ولا تكاد تجد إلا إشارات قليلة قصيرة إلى ما يجمع السورة الواحدة، كقوله في سورة النساء:

«هذه السورة سورة النساء أحسب أنها سميت كذلك لأنها تضمنت تقرير حقوق أساسية للنساء، بل إنشاء هذه الحقوق إنشاء... وليست السورة مقصورة على هذا الموضوع الذي أخذت اسمها منه، فإنها تشمل موضوعات أخرى في محيط أوسع من علاقة الرجال والنساء، ومن علاقات الأسرة عامة، ولكن المحور الذي تدور عليه عليه هذه الموضوعات كلها هو تنظيم علاقات

---

[١] في ظلال القرآن (ط٢) ١/٥-٧، وهي مقدمة الطبعة الأولى أيضًا.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

بني الإنسان، تارة بينهم وبين خالقهم سبحانه، وتارة بين بعضهم البعض، أفرادًا وجماعات، وعقائد وديانات، وشعوبًا ودولات»[١].

وأما في الإبرازة الثانية من الكتاب فقد كان الكلام أوسع على ملامح كل سورة، فكل سورة لها مقدمة تحيط بموضوعاتها وخصائصها، وهو يرى أن لكل سورة:

«شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب، كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو، ولها إيقاع موسيقي خاص إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة، وهذا طابع عام في سور القرآن جميعًا، ولا يشذ عن هذا طوال السور كهذه السورة (سورة البقرة)»[٢].

فهو يرى أن سورة البقرة يجمعها محور فيه خطان: الأول حول موقف بني إسرائيل من الدعوة في المدينة، والثاني في إعداد الجماعة المسلمة الناشئة لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد نكول بني إسرائيل عن حملها[٣]، وفي سورة آل عمران يرى أنها قِسْمٌ في تقرير حقيقة التوحيد والرد على شبهات أهل الكتاب، وقسم في شأن غزو أحد، والعلاقة بين القسمين بناء التصور الإسلامي في مجال المعركة لتثبيت الجماعة وتعليم سنة النصر الهزيمة[٤]، ومع هذين القسمين هناك ثلاثة خطوط عريضة تتناثر في السورة، بيان معنى الدين والإسلام، وتصوير حال المسلمين في استسلامهم لربهم، والتحذير من ولاية غير المسلمين[٥]، وفي سورة النساء

---

[١] في ظلال القرآن (ط١) ٧٩/٤.
[٢] في ظلال القرآن ٢٧-٢٨.
[٣] في ظلال القرآن ٢٨.
[٤] في ظلال القرآن ٣٥٢ و٣٥٦.
[٥] في ظلال القرآن ٣٥٧-٣٥٨.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

يجعل موضوعها محو المجتمع الجاهلي والدفاع عن المجتمع الجديد بتعريف أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتحديد قاعدة ذلك، وهو معنى الدين والإيمان والإسلام[١]، ويقول في سورة المائدة:

«وكما قلنا من قبل في تقديم سورة البقرة، وتقديم سورة آل عمران، وتقديم سورة النساء، نقول هنا عن المعركة التي كان القرآن يخوضها بالجماعة المسلمة مع أعداء هذه الجماعة وأعداء دينها، وفي مقدمتهم اليهود والمشركون والمنافقون، وذلك مع بناء التصور الإسلامي في نفوس المؤمنين، ومع تنظيم المجتمع الإسلامي بالتوجيهات والتشريعات، كل ذلك في وقت واحد، وفي منهج واحد... ومع تقارب الموضوعات التي تعالجها السور الطوال الثلاث السابقة مع الموضوعات التي تعالجها هذه السورة... فإنه تبقى لكل سورة شخصيتها وجوها وظلالها وأسلوبها الخاص في معالجة هذه الموضوعات... والطابع الخاص لهذه السورة هو طابع التقرير والحسم في التعبير»[٢].

ومن مثل هذا نكاد نتبين أن موضوع السور المدنية يكاد يكون واحدًا عنده، وهو بناء المجتمع بالتشريعات، ومعالجة وقائع السيرة وما تقتضيه من تعقيبات، وموضوع السور المكية يكاد يكون واحدًا أيضًا، وهو إنشاء العقيدة الإسلامية، كما في سورة الأنعام[٣]، مع ما يسميه شخصية السورة وطابعها، على أنه يحاول في كل سورة أن يلم بأطرافها وأجزائها، ويبين طابعها وسِمَتها، وما فيها من معان ومشاهد، وما فيها من فواصل وإيقاع. يقول في التقديم لسورة يونس:

«لقد كان آخر عهدنا في هذه الظلال بالقرآن المكي في سورة الأنعام وسورة الأعراف متواليتين في ترتيب المصحف، وإن لم تكونا متواليتين في ترتيب النزول،

---

(١) في ظلال القرآن ٥٥٥ و٥٦١.

(٢) في ظلال القرآن ٨٣٢-٨٣٣.

(٣) في ظلال القرآن ١٠١٦.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

ثم جاءت الأنفال والتوبة بجوهما وطبيعتهما وموضوعاتهما المدنية الخاصة، فالآن إذ نعود إلى القرآن المكي نجد سورتي يونس وهود متواليتين في ترتيب المصحف، وفي ترتيب النزول أيضًا، والعجيب أن هناك شبهًا كبيرًا بين هاتين السورتين وتلكما[١] في الموضوع، وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك، فسورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها، وتواجه الجاهلية بها، وتفند هذه الجاهلية عقيدة وشعورًا، وعبادة وعملًا، بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة في الأرض، وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ، وكذلك نحن هنا مع سورتي يونس وهود، في شبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضًا، إلا أن سورة الأنعام تنفرد عن سورة يونس بارتفاع وضخامة في الإيقاع، وسرعة وقوة في النبض، ولألاء شديد في التصوير والحركة، بينما تمضي سورة يونس في إيقاع رخي، ونبض هادئ، وسلاسة وديعة، فأما هود فهي شديدة الشبه بالأعراف موضوعًا وعرضًا وإيقاعًا ونبضًا، ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة، وملامحها المميزة، بعد كل هذا التشابه والاختلاف»[٢].

ولكنه من مزايا هذه الإبرازة الثانية للكتاب أن كل سورة لها تقديم واف يناسب طولها، يعرف بها وما تضمنته من موضوعات، وما فيها من خصائص وتناسق، وما يمكن أن يتصل بها من أحداث السيرة سواء أكانت مدنية أم مكية، على سبيل التقريب في معرفة زمن نزولها، إن لم يكن فيها من أحداث السيرة ما هو معلوم التاريخ على سبيل الجزم.

---

[١] الصواب أن يقول: وتينك أو وتينكم، بإفراد الخطاب أو جمعه، لأن «تلك» للإشارة إلى الواحدة، و«تين» للإشارة إلى الاثنتين، وحرف الخطاب يتنوع بحسَب المخاطب، فتثنيته نحو قوله تعالى: **(ذلكما مما علمني ربي)**.

[٢] في ظلال القرآن ١٧٤٥-١٧٤٦.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

• الغزالي والتفسير الموضوعي:

نشر الشيخ محمد الغزالي (١٣٣٥-١٤١٦هـ = ١٩١٧-١٩٩٦م) قبيل وفاته كتابًا سمّاه: «نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم»، وعلق فيه على سور القرآن كلها، وقال في مقدمته:

«والهدف الذي سعيت إليه أن أقدم تفسيرًا موضوعيًّا لكل سورة من الكتاب العزيز، والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضعي، الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام، أما الأول فيتناول السورة كلها يحاول رسم صورة شمسية لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيدًا لآخرها، وآخرها تصديقًا لأولها. لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة، وإن كثرت قضاياها، وتأسيت في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة، وهي أطول سورة في القرآن الكريم، فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة، يعرف ذلك من قرأ كتابه النبأ العظيم، وهو أول تفسير موضوعي لسورة كاملة فيما أعتقد... ثم شعرت أن همتي دون هذه المهمة، وكدت أتوقف! ثم قلت: لأن أقطع شوطًا أو شوطين في هذا الطريق أفضل من أستسلم للعجز في المراحل الأولى. ولكن الله أعان ووفق فقطعت الطريق وبلغت نهايته... إنني أختار من الآيات ما يبرز ملامح الصورة، وأترك غيرها للقارئ يضمها إلى السياق المشابه، وذلك حتى لا يطول العرض ويتشتت، والإيجاز مقصود لدي»(١).

ولكن الشيخ لم يف بهذه الخطة التي رسمها، ولم يبين وحدة الموضوع في السورة، وكيف تشد الروابط موضوعاتها على اختلافها، وكان ما كتبه على السورة تعليقات عامة على بعض آياتها، إلا ما ندر، كقوله في سورة آل عمران:

---

(١) نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم ٥-٦.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

«يستطيع قارئ سورة آل عمران أن يستبين على عجل موضوع السورة الكريمة، فهي تدور على قضيتين كبيرتين: الأولى حوار مع أهل الكتاب الذين يخاصمون الإسلام داخل المدينة، والأخرى تعليق على غزوة أحد... والحديث في كلتا القضيتين يأخذ بدايته منفردًا في أول السورة ووسطها، ثم يختلط الحوار والتعليق في أواخر السورة، كأن جهاد الدعوة يقضي بالثبات في الموقفين، ويوجب على المسلمين مواجهة مشتركة لكيد اليهود داخل المدينة، وهجوم الوثنيين عليها»[(١)].

على أن الحوار الأغلب في السورة كان للنصارى، ولم يكن منهم من يسكن المدينة، والسورة تسميهم جميعًا أهل الكتاب، وفيها حديث مع هؤلاء وهؤلاء. وقال في سورة النساء: «الثلث الأول من سورة النساء حديث عن الأسرة وقضاياها، والأسرة هي المجتمع الصغير، والثلثان الباقيان حديث عن الأمة وشئونها، والأمة هي المجتمع الكبير، فمحور السورة كلها العلاقات الاجتماعية وضرورة إحكامها وتسديدها»[(٢)]، وقال في سورة يونس: «سورة يونس مكية، تشبه سورتي الأنعام والإسراء في موضوعها، وهو التعريف بالله عن طريق النظر في ملكوته، والتأمل في خلقه»[(٣)].

• عودة الشُّبَه مع الأستاذ البيومي:

وقد كان الظن أن التماس جامعة للسورة أو بناءٍ لها قد صار مطلوبًا مشروعًا من كثرة ما بحثه الدارسون، وإن اختلفت الأنظار في وجه ذلك في السورة المعينة، والاختلاف في ذلك أمر متوقع من أجل صعوبته، ومن أجل أن الاختلاف في التفسير كثير معهود، ومن أجل أن الصواب قد يتعدد، ومن أجل أنه لا أمل في كلمة فاصلة تغلق الباب في كثير من شئون القرآن،

---

(١) نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم ٢٧.

(٢) نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم ٤٧.

(٣) نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم ١٥٧.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

فهو لا تنقضي عجائبه، وقد نزل للزمن كله، وما زال المتدبرون يكشفون من وجوه إعجازه، وجمال بنائه، وحكمة نسقه، ما يزيد اليقين في إلهيته، وقد ادُّخر للاحقين كثير مما غاب عن السابقين.

كان الظن ذلك فعادت شُبَه إنكار تلمس بناء السور مع الأستاذ محمد رجب البيومي (١٣٤١-١٤٣٢هـ = ١٩٢٣-٢٠١١م) رحمه الله، فينقل عن الرافعي أن الذي يجمع السياق القرآني هو وحدة التركيب، أو روح التركيب[١]، وأن هذه الجامعة للبيان القرآني غفل عنها من رأى السورة تنتقل من غرض إلى غرض «فأخذ يتلمس الوسائل البعيدة والقريبة في عقد الصلات بين المعاني المتجاورة، وقد يحالفه التوفيق في بعض ما يحاول من هذا الربط»، وقد اجتهد بعض المفسرين كالرازي في بيان الصلات بين الآيات «وكتبوا في ذلك كتابة واعية تدل على فطنة واجتهاد، ولكننا نخالف هؤلاء»، لأن الصلة إن ظهرت بين الآيتين التجاورتين «فإن بعض السور لا تكاد تدور على فكرة خاصة بما يساق من هذه المعاني»، لأن الربط جزئي لا يحدد هدفًا للسورة «إلا بتكلف خاض فيه الخائضون عن اجتهاد يخطئ ويصيب»[٢].

وهذا كلام مضطرب، فماذا يضير الاجتهاد في التماس معنى للسورة إذا كان يخطئ ويصيب؟ وماذا يضير الذي يبحث في الصلات بين الآيات أو في معنى جامع أو معان للسورة؟ كله اجتهاد مشكور مأجور، والتفسير أغلبه ظني ومختلف فيه، والرافعي نفسه الذي استشهد بكلامه لم ينكر المناسبات، بل أثنى على من اجتهد فيها، ونقل خلاصة ما في الإتقان في الموضع نفسه الذي ذكر فيه ما سماه: «روح التركيب».

ثم نقل الأستاذ البيومي عن السيد رشيد رضا مزية القرآن في مزج المعاني والمقاصد، لأنه نزل للتعبد، فتكون هذه المقاصد في القليل والكثير منه، وفي القصير والطويل من سوره[٣]، وليس

---

[١] البيان القرآني ١٧٧، وكلام الرافعي في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ط٤/١٩٤٠م) ٢٥٩-٢٦٠.

[٢] البيان القرآني ١٧٧-١٧٩.

[٣] البيان القرآني ١٨٥-١٨٧. وكلام السيد رشيد رضا في الوحي المحمدي (ط٣/ ١٩٣٥م) ١٢٣-١٢٥.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

يمنع هذه المزج للمعاني، ولا هذا التشابه في السور، من جامع يجمع أجزاء السورة، بل هذا من الإعجاز، أن تكون الوحدة في الكثرة، وأن يجتمع التشابه والتمايز، وهذا ليس من الفرض أو التعسف، بل وُجد حقيقة بالتأمل والتتبع.

ثم ساق رأي الأستاذ محمد عبد الله دراز، وعلق عليه بقوله: «وقد أتاح الدكتور بذلك لكل مبتدئ أن يعمد إلى سورة من السور الكريمة فيختار بعض عناصرها المتقاربة، ويهمل ما لا سبيل إلى انضمامه، ثم يخرج على الناس برأي يهتف بوحدة الموضوع في السور القرآنية. إن الرجل الكبير قد صدر عن نظر مخلص واعتقاد نزيه، ولن يعدم جزاءه الأوفى عند الله»[١]، وعاب تفسير الأستاذ دراز لسورة البقرة بمثل هذا، وهو أن بعض ما فيها لا يدخل تحت ما فصَّله من أقسام، ولكن الأستاذ درازًا أحاط بكل ما في السورة وأدخله في هذه الأقسام، على ما في ذلك من مناقشة سلفت في محلها، ولكن الاختلاف في التوجيه لا يُسقط أصل المبدأ، وهذا ما حاوله الأستاذ البيومي في الموازنة بين رأي الأستاذ الصعيدي والأستاذ دراز في سورة البقرة[٢]، فهو يطلب لصحة رجوع السورة إلى معنى أن يتفق الناظرون والمتدبرون على توجيه واحد، وهيهات! فهم يختلفون بين خطأ وصواب، وبين صواب وصواب، وبين صواب وأصوب، ومَرَدُّ كل ذلك إلى الشواهد والقرائن، فالقرآن يفسِّر بعضه بعضًا، وتفسره السنة، ويفسره السلف، وتفسره لغة العرب، وإذا جاء الرأي المستضيء بالشواهد وجد مكانه في بقية ما صح من التفسير وصادفه القبول، لائقًا بالموضع، متمِّمًا للمعاني، كاللبنة تُجعل في موضعها، فكأنما كانت تبحث عنه، ويبحث عنها.

- **استمرار البحث في النظام:**

ولم ينقطع البحث في معاني السور، ولا في مناسبات ترتيبها، إلى اليوم:

---

(١) البيان القرآني ١٩٥.

(٢) البيان القرآني ١٩٦-١٩٨.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

١- فألف الشيخ عبد الله محمد الصديق الغماري (١٣٢٧-١٤١٣هـ = ١٩١٠-١٩٩٣م): «جواهر البيان، في تناسب سور القرآن»، فرغ منه سنة ١٩٦٦م[١]، وهو كما هو ظاهر من عنوانه في تناسب ترتيب السور، أي في صلة كل واحدة بمجاورتها.

٢- وألف الشيخ عبد الرحمن حسن حبَنَّكة (١٣٤٥-١٤٢٥هـ = ١٩٢٧-٢٠٠٤م) كتابه: «قواعد التدبر الأمثل»، وكانت طبعته الأولى سنة ١٩٧٩م، وهي أربعون قاعدة في التدبر والتفسير، وجعل القاعدة الأولى منها: في «ارتباط الجملة بموضوع السورة، وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن»[٢]، والقاعدة الثانية في: «وحدة موضوع السورة القرآنية»[٣]، ثم حاول تطبيق ذلك في تفسيره الذي سماه: «معارج التفكر، ودقائق التدبر»، وقد رتبه بحسب ترتيب النزول المظنون، وبدأ نشره سنة ١٩٨٩م، وأخرج منه ١٥ مجلدًا فيها تفسير السور المكية، ومبادئ تفسير سورة البقرة من المدني، وخرج الجزء الأخير سنة ٢٠٠٦م.

٣- وألف الشيخ عبد الله محمود شحاته (١٣٤٩-١٤٢٣هـ = ١٩٣٠-٢٠٠٢م): «أهداف كل سورة ومقاصدها»، نشر سنة ١٩٧٦م، وبدأه بسورة البقرة، وختمه بسورة الجاثية.

٤- وألف الشيخ محمد علي الصابوني (١٣٤٩-١٤٤٢هـ = ١٩٣٠-٢٠٢١م): «إيجاز البيان في سور القرآن»، أتمه سنة ١٩٧٨م، وقد تكلم فيه على السور كلها بحديث موجز. وألف كتابًا آخر أوسع من هذا في موضوعه، سماه: «قبس من نور القرآن الكريم»، وبدأ نشره سنة ١٩٨٦م، وما اطلعت عليه ٦ أجزاء إلى سورة الإسراء.

٥- وألف الشيخ سعيد حَوَّى (١٣٥٤-١٤٠٩هـ = ١٩٣٥-١٩٨٩م) تفسيره: «الأساس في التفسير»، نشر سنة ١٩٨٩م، وشرح فيه رأيه في ترتيب السور، وهو أن كل سورة تفصِّل آية أو آيات في سورة البقرة.

---

[١] جواهر البيان ١٦٩.

[٢] قواعد التدبر الأمثل ١٣.

[٣] قواعد التدبر الأمثل ٢٧.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

٦- وألف الشيخ عبد الحميد محمود طهماز (١٣٥٥-١٤٣١هـ = ١٩٣٧-٢٠١٠م) تفسيره: «التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم»، نشر تامًّا سنة ٢٠١٣م، وهذه تسمية الناشر للكتاب، وقد أقره عليها المؤلف، ونُشر أجزاء منه في سور من القرآن قبل ذلك بزمن طويل.

٧- وألف محمود البستاني (١٣٦٦-١٤٣٢هـ = ١٩٣٧-٢٠١١م) تفسيره: «التفسير البنائي للقرآن الكريم»، نشر سنة ٢٠٠١م، وقد عُني فيه ببناء السورة، وخصائصها البيانية.

٨- ونشرت جامعة الشارقة سنة ٢٠١٠م عملًا جماعيًّا أسمته: «التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم»، وسار فيه المؤلفون على منهج يبيِّنون فيه مقدمات السورة، وموضوعها، ومناسبتها لما قبلها، ومناسبة فاتحتها لخاتمتها، وغير ذلك من المناسبات، وتفسيرًا إجماليًّا لآياتها.

• سبحاني وتأصيل نظرية الفراهي:

ولا يحسن ختم الحديث عن تفسير نظام السورة والسور إلا بذكر رسالة الشيخ محمد عناية الله أسد سبحاني (١٣٦٤-... هـ = ١٩٤٥-...م) التي سماها: «إمعان النظر، في نظام الآي والسور»، نشرت سنة ٢٠٠٣م، وحاول فيها رد الشبهات المعارضة للتفسير النظامي للقرآن الكريم، وبيَّن فيها مزايا تتبع نظام السورة، ومنها أن فهم النظام مرجح عند اشداد الخلاف في التفسير، وأنه يبين أسرار المتشابه في السور، ففي كل سورة له سياق بحسب نظامها، وأنه يكشف وجوهًا من الإعجاز في تسوير السور وترتيبها، ثم ذكر بابًا في المعالم التي تهدي إلى نظام السورة، كالقصص المتكرر، وفي كل مرة يكون لغرض، وكالآيات المتشابهات يفسر بعضها بعضًا، وكمطلع السورة وختامها يكونان في معنى واحد، وتشابه فواتح السور يدل على تقارب السور في المعاني.

وللأستاذ سبحاني كتاب آخر أسماه: «البرهان في نظام القرآن»، تكلم فيه على سور الفاتحة والبقرة وآل عمران، وقدَّم لذلك بحديث عن تفسير البقاعي، ووصفه بالتكلف، وبأنه لا يسير

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية

WWW.QURANONLINELIBRARY.COM

على أساس علمي[١]، وهذه مبالغة منه، فالأمر في كل ذلك رأي يخطئ ويصيب، ومعياره قوة الشواهد، ومساوقة الرأي للثابت من معاني الآي ودلائل الشريعة الأخرى، بحيث يجيء الرأي في موضعه سادًّا مسدَّه، ملائمًا لما حوله، يجعل السورة نظامًا واحدًا لا تَخالُف فيه ولا تباين، ويصح في ذلك التعدد، فليس ببعيد أن التنوع مقصود، ويبلغ كل امرئ من ذلك ما يوفقه الله إليه، وما يفتح به عليه.

والله أعلم

[١] البرهان في نظام القرآن ٢٤ و٢٧-٦١.

المكتبة العالمية لكتب التجويد والقراءات علي الشبكة العنكبوتية